2269
3578
.715

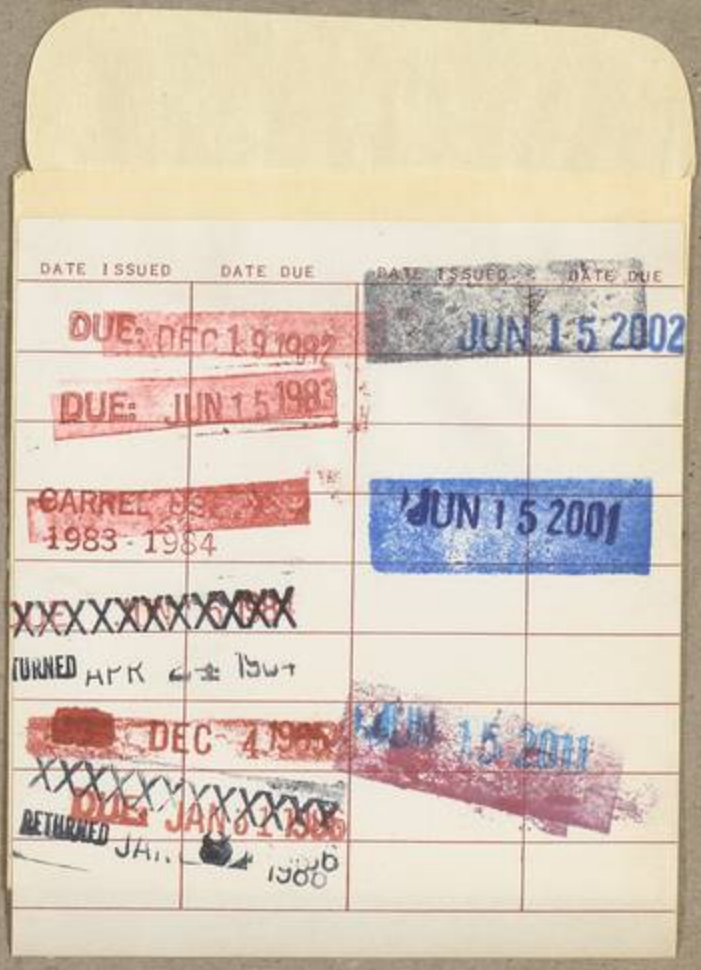

a32101 0038558046

عبد الله فكري

عصره . حياته . أدبه

تأليف

محمد عبد الغني حسن

١٩٤٦

Hasan, Muhammad ʿAbd al Ghani

عبد الله فكري

عصره . حياته . أدبه

ʿAbd Allāh Fikrī

تأليف

محمد عبد الغني حسن

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

2269
.3578
.715

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦
جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمـــة

لحضرة صاحب العزة الأستاذ المؤرخ الكبير عبد الحميد العبادى بك

عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

إن لى بالمغفور له عبد الله باشا فكرى عهدا قديما وآخر حديثا . أما القديم فيرجع إلى زمن طفولتى وأيام كنت صبيا ناشئا بادئا فى التعلم فقد كان على أيانئذ أن أطالع فصولا من كتاب « الفوائد الفكرية » الذى وضعه عبد الله فكرى خصيصا لتلاميذ المدارس الإبتدائية . وأشهد لقد أفدت من هذا الكتاب أدبا نفعنى فى مستقبل حياتى نفعا جزيلا . وما زلت على بعد الزمن وتقادم العهد أذكر قول المؤلف فى مفتتح الفصل المعقود فى محبة الوطن : « كما أن الإنسان يحب والديه وأستاذه وإخوته كذلك يحب وطنه أى بلاده التى آوته وأكنته فوق أرضها وتحت سمائها وتربى بمائها وهوائها ونباتها وحيوانها . فعليه متى عرف الخير من الشر أن يعرف لها حق هذه المزية الجليلة ويلاحظ أن فى رقبته دينا يؤديه لها طول مدة حياته ، وهو خدمتها بكل ما يمكنه وتصل إليه غاية استطاعته » ما زالت هذه الكلمات ماثلة فى ذهنى ، عالقة بخاطرى ، لم ينسنيها كر الغداة ولا مر العشى .

أما عهدى الحديث فيرجع إلى بضعة شهور مضت ، وذلك أنى احتجت فى العام الماضى إلى التثبت من أبيات من شعر كمال الدين بن النبيه المصرى ، فوجدت طلبتى فى نسخة ديوانه المطبوع بالمطبعة العلمية سنة ١٣١٣ هـ والذى تولى عبد الله باشا فكرى حل ألفاظه والتعليق على أبياته . وليت شعرى ماذا عسى أن يطمع عالم أو أديب فى أكثر من أن يجد فى آثاره ناشئة التلاميذ غذاء لعقولهم ، وكهول الأساتيذ جلاء لما قد يعرض لهم من مشكلات علمية ؟

2269
.3578
352

كان عبد الله فكرى ، كاتبا سهل العبارة ، واضح الأسلوب ، معدودا بحق من أولئك النفر الذين قاموا فى أخريات القرن الماضى فشرعوا يفكون عن الكتابة العربية ما كانت ترسف فيه إذ ذاك من قيود وأغلال . وكان شاعرا يمثل شعره مرحلة إنتقال الشعر العربى المصرى من الحال التى كان عليها فى النصف الأول من القرن المذكور ، إلى الحال التى صار إليها بعد على أيدى البارودى وإسماعيل صبرى وأحمد شوقى . وكان لغويا متضلعا من اللغة العربية كما يشهد شرحه على همزية حسان بن ثابت ، وتشهد تعليقاته على ديوان ابن النبيه المصرى . وكان رجل إدارة وسياسة ، تقلب فى مناصب الحكم حتى تقلد وزارة المعارف إبان الحركة الوطنية المعروفة بالثورة العرابية . وكان فوق ذلك كله ذا فضل وورع ونفس سمحة وخلق رضى . كان من أولئك الذين يصدق عليهم قول النبى صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقا ، الموطأون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون » .

بهذه الصفات الفاضلة والخلال الحميدة نشأت لعبد الله فكرى عند معاصريه من الحكام والعلماء والأدباء مكانة رفيعة ومنزلة ممتازة . أما الحكام فكانوا يثقون به ويعولون فى المهم من أمورهم عليه . وأما العلماء والأدباء أمثال محمد عبده ، وعلى الليثى ، وحسين المرصفى ، وعلى مبارك ، وأحمد قدرى ، وعبد المجيد الخانى ، والسيد صالح مجدى ، ومحمد محمود الشنقيطى ، وأحمد فارس الشدياق ، وحفنى ناصف ، وإسماعيل صبرى ، وشكيب أرسلان ، فقد قدروه وأحبوه واتصلت بينهم وبينه أسباب ود خالص ومحبة صادقة . ولا أدل على ذلك من أنهم لما انطفأ سراج حياته وهو لم يزل بعد فى الخمسينيات من عمره ، حزنوا عليه حزنا بالغا ؛ ورثاه الشعراء منهم بالمراثى الحارة البليغة .

⁂

كان من حق هذه الشخصية الكاملة أن تكون سيرتها قد حررت وتدوولت منذ عهد بعيد ، ولكن هذه السيرة ظلت مع الأسف غير محررة أكثر من خمسين عاما . ثم تأذن الله بأن يعترف بالفضل لأهله ، فانتدب للأمر الأديب الشاعر المعروف الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، فجلا هذه السيرة على الناطقين بالضاد ، فى كتاب خاص هو هذا الذى أولتنا الظروف السعيدة شرف التعريف به وتقديمه إلى القراء .

ساق المؤلف الفاضل الحديث فى هذا الكتاب عن أسرة المترجم ، ونشأته ، وطلبه العلم فى الجامع الأزهر ، وتدرجه فى مناصب الدولة ، ورحلاته شرقا وغربا كما فصل الكلام على أخلاقه وعلمه وأدبه. ومع أن الكتاب موضوع أصلا فى الترجمة لعلم من أعلام مصر فى القرن الماضى ، فقد حرص المؤلف على أن يجعل منه مرآة تنعكس عليها معالم العصر الذى عاش فيه المترجم . فهو يصور لنا طرق الدراسة والتدريس فى الجامع الأزهر فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى، وحركة التصوف ومدى انتشارها إذ ذاك ، ومستوى فنى المنثور والمنظوم قبل عهد المترجم ومبلغ تأثيره فيهما . كما يصف اشتباك العلاقات الأدبية بين من ذكرنا من علماء مصر وأدبائها وبين معاصريهم من علماء الشام وأدبائها ، كل ذلك فى فصول متسقة ممتعة مزج فيها المؤلف التاريخ بالأدب مزجا لطيفا بارعا .

لقد أسدى الأستاذ المؤلف بإصدار هذا الكتاب إلى التاريخ يدا سيشكرها له المؤرخون ، كما أسدى إلى الأخلاق والأدب منة سيثنى عليه بها محبو الأخلاق الفاضلة والأدب الصميم .

عبد الحميد العبادى

رمل الاسكندرية فى ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٦

مراجع البحث

اسم الكتاب	المؤلف	المطبعة والتاريخ
الآثار الفكرية	أمين باشا فكرى	بولاق ١٣١٥ هـ . القاهرة
الآداب العربية فى القرن التاسع عشر	الأب لويس شيخو	الآباء اليسوعيون ١٩٢٦ م . بيروت
إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا	أمين باشا فكرى	المقتطف ١٨٩٢ م . القاهرة
الإسلام والتجديد فى مصر	تشارلز آدمس وترجمة عباس محمود	الاعتماد ١٩٣٥ م . القاهرة
أعجب العجب فى شرح لامية العرب	الزمخشرى	الجوائب ١٣٠٠ هـ القسطنطينية
أعيان البيان	حسن السندوبى	الجمالية ١٩١٤ م . القاهرة
البعثات العلمية فى عهد محمد على	الأمير عمر طوسون	صلاح الدين ١٩٣٤ م . الإسكندرية
تاريخ آداب اللغة العربية	جورجى زيدان	الهلال ١٩٢٤ م . القاهرة
تاريخ الأستاذ الإمام	السيد محمد رشيد رضا	المنار ١٩٣١ م . القاهرة
تاريخ الجبرتى المسمى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار »	عبد الرحمن الجبرتى	بولاق ١٢٩٧ هـ . القاهرة
تاريخ الحركة القومية « عصر محمد على »	عبد الرحمن الرافعى	النهضة ١٩٣٠ م . القاهرة
تراجم أعيان القرن الثالث عشر	أحمد تيمور باشا	١٩٤٠ م . القاهرة
تراجم مشاهير الشرق	جورجى زيدان	الهلال ١٩١١ م . القاهرة
التصوف الإسلامى العربى	عبد اللطيف الطيباوى	العصور ١٩٢٨ م . القاهرة
التعليم فى مصر	أمين باشا سامى	المعارف ١٩١٧ م . القاهرة
تقويم النيل	« « «	بولاق ١٩١٦ م . القاهرة

اسم الكتاب	المؤلف	المطبعة والتاريخ
الثورة العرابية	عبد الرحمن الرافعى	النهضة ١٩٣٧ . القاهرة
الخطط التوفيقية	على باشا مبارك	بولاق ١٣٠٦ هـ . القاهرة
ديوان البحترى	البحترى	هندية ١٩١١ م . القاهرة
ديوان الأمير شكيب أرسلان	الأمير شكيب	المنار ١٩٣٥ م . القاهرة
ديوان محمد شهاب الدين المصرى	محمد شهاب الدين	الشبراوى ١٢٧٧هـ . القاهرة
شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى	عباس محمود العقاد	حجازى ١٩٣٧ م . القاهرة
عصر إسماعيل	عبد الرحمن الرافعى	النهضة ١٩٣٢ م . القاهرة
لطائف المنن والأخلاق	الشعرانى	بولاق ١٢٨٨ هـ . القاهرة
مجلة المقتطف	—	المقتطف
مجلة المشرق	—	الآباء اليسوعيون
مصر للمصريين	سليم خليل النقاش	جريدة المحروسة ١٨٨٤ م . القاهرة
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	الأدبية ١٩٠٠ م . بيروت
الوقائع المصرية	—	

فهرس الموضوعات

الصفحة

إلى الأزهر أم إلى المدارس المدنية ؟ ١
أساتذة عبد الله فكرى ٤
الشيخ السقا ٦
ماذا تعلم عبد الله فكرى ؟ ٧
تصوفه ١٠
معلم أبناء الملوك ١٤
عصامية عبد الله فكرى ١٩
عبد الله فكرى والمعارف ٢٣
شهادة الأستاذ الإمام فى عبد الله فكرى باشا ٣٤
رحلاته ٣٧
فى الطريق إلى المؤتمر ٤١
سوق عربية فى أرض أوربية ٤٥
رسالتا عبد الله فكرى فى المؤتمر ٥٠
بين الدين والدنيا ٦٩
رجل أخلاق ٨٠
بين الجد والفكاهة ٩١
عبد الله فكرى والثورة العرابية ٩٧
عصر وعصر ١٠٢
حكمة الوالد الشاعر ١١٣
أغراض من الشعر ١١٨
تأثر عصره ١٢٢
آثار عبد الله فكرى الأدبية ١٢٦

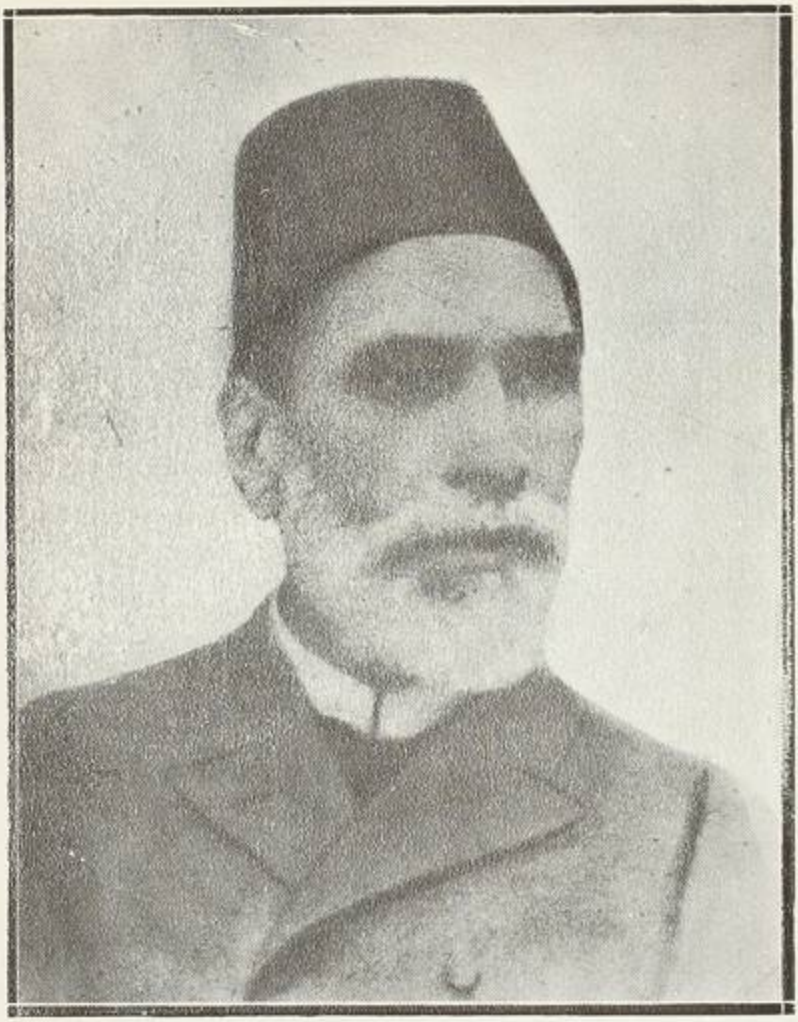

المرحوم عبد الله باشا فكرى

ولد سنة ١٢٥٧ هـ — ١٨٤٢ م
توفى سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م

إلى الأزهر أم إلى المدارس المدنية ؟

فى أواخر عصر محمد على ولد لمحمد أفندى بليغ المهندس غلام سرى أسماه عبد الله فكرى . وأدرك الوليد فى طفولته بضع سنين من حكم ذلك العاهل الكبير .

وفى عصر إبراهيم باشا وعباس الأول وسعيد قضى عبد الله فكرى بضعة وعشرين من عمره حتى لقد أوفت سنه على الثلاثين فى أوائل حكم إسماعيل .

وكان فى عصر عباس باشا الأول بضعة من المدارس كالمبتديان الابتدائية والمفروزة والألسن والمحاسبة والسوارى والطوبجية ، وهى مدارس حربية خصوصية ، وكمدرسة الطب والصيدلة والمهندسخانة ، وهى مدارس عالية . ولقد خصصت عصر عباس بالذكر لأنه العصر الذى كان فيه عبد الله فكرى ناشئا تسمح له سنه بطلب العلم .

فإلى أى واحد من تلك المعاهد وُجِّه الفتى عبد الله وهو ابن رجل كان كبير المهندسين بالشرقية ومفتشا لهندسة الجيزة والبحيرة فى عصر محمد على ؟

لقد كان من الطبيعى لفتى فى مثل تلك البيئة الهندسية أن يتجه إلى الهندسة حتى ينشأ على ما كان عليه أبوه . أو أن يتجه على الأقل إلى مدرسة أخرى كالطب والصيدلة ، وهى علوم حديثة عصرية بينها وبين علم أبيه فى الهندسة وشائج وأسباب ...

ولكن أباه مات والوليد حدث صغير . ولعل ذلك الأب المتدين الصالح والموظف المدنى كان يهيء لابنه مستقبلا ويبنى له خططا . ولعله كان يريد أن يتجه به وجهة التعليم المدنى جريا على غراره .

ولكن موت الوالد قطع على الولد التوجيه الذى كان ينتظره لو أن الأقدار مدت له فى أسباب العمر .

فوجه الغلام إلى القرآن الكريم يحفظه . وما فى ذلك عجيب . . فقد كان أبوه المهندس حافظا له من قبل — على الرغم من دراسته المدنية — وكان جده الشيخ عبد الله حافظا له لأنه كان من العلماء المدرسين بالأزهر، وكان جده الأعلى الشيخ محمد رجلا جمع إلى الفضل العلم والصلاح .

فاذا كانت الأحوال عاكست عبد الله فى ألا يتعلم العلوم الحديثة كوالده ، فإن فى سلسلة آبائه شفيعا له بتعلم العلوم الدينية. فبيتهم فى العلم والدين موطد الأركان ، والحق أن ظهور محمد أفندى بليغ — والد المترجم — فى ذلك الثوب المدنى الهندسى يعد غريبا فى تلك السلسلة . . ولكن شاء الله أن يجعل على يد عبد الله وصلها . . .

وشاء الله أن يجعل من عبد الله شيخا أزهريا وفقيها محدثا وراويا من مشايخ العصر . . .

ثم يشاء الله بعد ذلك أن يكون أمر التعليم فى مصر على يد نفر من المخلصين وأن يكون عبد الله فكرى واحدا من هؤلاء المخلصين . . . ثم شاء الله أن تكون ثقافة عبد الله فكرى الأزهرية هى سبيله الوحيد إلى الوزارة . وهى ثقافة أزهرية خالصة ، لم تكملها بعثة إلى أوروبا كما كان الحال مع على باشا مبارك ورفاعة رافع الطهطاوى وغيرهما ، بل هى ثقافة عربية خالصة تظاهرها معرفة باللغة التركية هيأته أول أمره لأن يكون مترجما بالقلم التركى .

والحق أن الأزهر يحق له أن يفتخر الفخر كله بابنه عبد الله فكرى فهو الأزهرى الوحيد الذى استطاع أن يصل إلى مرتبة الوزارة عن طريق الثقافة الأزهرية وحدها من غير حاجة إلى الانتظام فى سلك البعثات كعلى مبارك أو الدراســـة القانونية كسعد زغلول أو إتمام التعلم فى أوروبا كمصطفى عبد الرازق .

أساتذة عبد الله فكرى

كان الأزهر فى ذلك الحين يموج بطائفة من العلماء أخذوا العلم بطريقة الرواية عن أشياخهم . وكان لكل شيخ حلقته ولكل شيخ طلبته ، يعدونه أباً وشيخا ، ويعد المقبلين منهم عليه تلاميذه وأبناءه .

وليس على الطالب أن يختص بشيخ واحد أو يستأثر بحلقة بعينها ، فهو ينتقل من شيخ إلى شيخ ، أو يدور من حلقة إلى حلقة كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة .

وكان فى طلاب ذلك الزمان جد فى التحصيل ، وإقبال على العلم ، وطاعة للأساتذة . وكانت الرغبة المحض تدفعهم إلى العمل . فلا يحتاجون إلى وازع يزعهم أو دافع يسوقهم .

وكان الأزهر على عقم طريقته ، وتفكك مناهجه ، وانصراف رجاله إلى الجدل والمناقشة وإضاعة العمر فى قراءة المتون وحفظها ، وبذل النفس فى مراجعة الشروح وهوامشها وتقاريرها . كان الأزهر على الرغم من ذلك كله مباءة علم وموطن فقه ومدرسة شريعة . وكان لبعض شيوخه أثر فى حفظ السمعة التى كان يتمتع بها الأزهر . وكان الناس ينظرون اليه فى ذلك الحين كأنه مدرسة الإسلام الكبرى ، ومدرسة العربية الكبرى ، يدرس فيه الفقه على أقطابه ، وتدرس فيه اللغة على شيوخها .

قبل ميلاد عبد الله فكرى ببضعة عشر عاما مات من علماء الأزهر شيخ ملأ اسمه العالم العربى الإسلامى شهرة ، وانعقدت له فى كل قطر مكانة أجمعت على فضله وعلمه ، حتى لقد وصفه الجبرتى المؤرخ بأنه (شيخ شيوخ أهل العلم وصدر صدور أهل الفهم المتفنن فى العلوم كلها نقليها وعقليها وأدبيها) (١)

هذا العالم هو الشيخ محمد الأمير صاحب الكتب الأزهرية التى كانت تدور بين أيدى الطلاب فيقتلونها حفظا ودرسا ، كحاشيته على المغنى لابن هشام ، وحاشيته على الشيخ عبد السلام على الجوهرة ، وحاشيته على المجموع واتحاف الأنس فى الفرق بين الجنس وعلم الجنس .

وكان للشيخ الأمير تلاميذ أجازهم فتصدروا للتدريس وقعدوا للتعليم بالأزهر ينقلون عن شيخهم ويروون عنه ، ويرفعون السند منه إلى أشياخه الأكابر من أمثال الشيخ الصعيدى والسيد البليدى والشيخ محمد التاودى من علماء القرن الثانى عشر .

وكان من زملاء الشيخ الأمير فى الأزهر عالم ضرير اشتهر بالعلم وعرف بالتقوى والورع واعتقد الناس فيه الصلاح وسألوه الدعاء الذى يستجاب ، هو الشيخ ثعيلب الضرير .

كانت حلقتا الأمير وثعيلب غاصتين بالطلاب . وكان السعيد منهم من ظفر بإجازة أحد الشيخين أو ظفر بإجازتيهما معا . وما ظنك بعالم كالشيخ الأمير يفد إليه الطلاب من شمالى أفريقية ، وتتوالى عليه الصلات من سلاطين المغرب ؟

وما ظنك بهذا الشيخ الأمير وقد ذهب إلى عاصمة الخلافة العثمانية لبعض الأمر ، فأبى أن يقضى المدة هناك ساكتا لاتجتمع له حلقة ، ولايزدحم حوله

---

(١) تاريخ الجبرتى ج ٤ ص ٢٨٤ .

طلاب . فألقى بعض الدروس هناك بهر بها علماء الأتراك وملك عليهم سبيل الإعجاب به والتوقير له فاستجازوه فأجازهم ؟

أليس من حق هذا العالم أن يفخر به طلابه ، وأن يعدوا الإجازة من يديه شرفا وكسبا ، وأن يعدوا الرواية عنه والسند عليه حظا وربحا ؟

ولم يكن هذان الشيخان كل ما فى صحن الأزهر من تراث علمى عتيق . . فقد كان معهما السيد داود تلميذ السيد المرتضى الزبيدى شارح القاموس المحيط . والشيخ على القوصى الذى بورك له فى العمر ومد له فى الأجل بعد أن عاصر الحملة الفرنسية على مصر . والشيخ سليمان الفيومى العالم الشهم الذى اشتهر بحفظ الذمار ورعاية الجوار فقد لجأ إليه نساء المماليك محتميات فى داره من أذى الفرنسيين فحماهن وصد عنهن أذاهم[1] . وعلى رأس هؤلاء العلماء الشيخ عبد الله الشرقاوى الذى أظهرته الأقدار على مسرح السياسة فى مصر زمن الحملة والذى اشترك مع زميله السيد عمر مكرم فى إلباس محمد على خلعة الولاية والحكم فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥

الشيخ السقا

كان من تلاميذ ذلك الجيل المدبر شيخ بدت على وجهه دلائل ذكاء ترجى له ثمرات . وكان فى هذا الشيخ حرص على طلب العلم وإقبال عليه وإعراض عن كل ما يشغل فؤاده أو ينزع به منازع الدرس الفطير .

كان هذا الشيخ من مواليد القاهرة إلا أنه من أصل ريفى ، وكان فى هذا الشيخ إرادة لا تلين وعزيمة لا تنكسر . فقد أراد وهو طفل أن يحفظ القرآن فحفظه ، وأراد أن يتزود من زاد العلم فدخل الأزهر واتصل بكل عالم وأخذ

---

(١) تاريخ الحركة القومية للرافعى ج ٢ ص ٢٩٧

عن كل حلقة وعب من كل حوض حتى أصبح أهـــلا للتدريس ، له حلقة كبيرة ، وله تلاميذ يهوون إليه من كل فج ، وله شهرة لم تنعقد فى ذلك الحين إلا للقليلين . وقد تسامع الطلاب نبأ ذلك الشيخ الجهبذ ، فانهالوا عليـه ، والطلاب أحرار فى ذلك الوقت لا يتقيـدون بدرس ، ولا يؤخذون بعالم معين ، ولا يفرضون على حلقة بذاتها .

فلمـاذا لا تتسع حلقة الشيخ إبراهيم السقا ، وهو كالبحر يقـذف للقريب والبعيد ؟

ولمـاذا لا يزدحم الطلاب على باب الشيخ إبراهيم السقا يفيدون منه علما غزيرا وفضلا كثيراً ؟

ولماذا لا يذهب الفتى عبد الله فـكرى إلى حلقة هذا الشيخ النابه يصادف فيها من العلم ما يروى ظمأ نفسه ؟

لقد ذهب عبد الله فكرى إلى هذا الشيخ الذى قدر له أن يخرج جيلا من العلماء والـكبراء .

وشاءت الأقدار أن يكون عبد الله فكرى واحدا من هؤلاء العلماء كما ذهب عبد الله فكرى إلى الشيخ على القوصى وتردد على حلقة السيد على خليل الأسيوطى ، واختلف إلى دروس الشيخ عبد الواحد الريانى ، ولكل من هؤلاء عمود كبير فى الجامع الأزهر الـكبير .

ماذا تعلم عبد الله فـكرى ؟

كانت المدارس الابتدائية فى طفولة عبد الله فكرى وشبابه تعلم القرآن والدين واللغة العربية والترجمة والخط والحساب والهندسة والتاريخ والجغرافية وتدبير الصحة والرسم والخط الأفرنكى واللغة التركية .

وكانت المدارس الخصوصية تعلم الهندسة والميكانيكا والعمارة والكهربائية الفنية والزراعة والكيمياء والبيطرة والمساحة العلمية والعملية . وكان الطب والصيدلة والهندسة تدرس فى المدارس العالية الخاصة بها .

كما كانت الفنون الحربية تدرس فى المدارس الحربية فى القلعة ، وتلك المدارس كانت على حداثة عهدها تخرج الضباط والمهندسين والأطباء والصيادلة ورجال الزراعة ممن يسدون حاجة الوظائف الضرورية .

ولقد شاء الله ألا يكون لعبد الله فكرى من دراسة تلك العلوم الحديثة نصيب ، فحرمته الأقدار تلك الدراسة المنظمة التى تجرى على منهاج معروف وسنن مألوف وساعات معينة ، وألقته فى أحضان الأزهر العتيق يتنقل من شيخ إلى شيخ ، ومن مجلس إلى مجلس ، ويتعلم بغير منهج يقيده ، أو ساعة تحدده ، أو نظام يأخذ به نفسه .

ولكن هذا الأزهر المضطرب فى مناهجه وبرامجه ، المشوش فى خططه وحلقاته ، المائج بأصوات الشيوخ تدوى كالطبل ، وبأصوات الطلاب تطن كالنحل . هذا الأزهر قد أخرج عقلا منظما وفكرا مرتبا ، وأنجب شيخا تطربش من غير ثقافة أجنبية أو دراسة عصرية ، فإذا هو موظف مرتب التفكير ، وإذا هو وكيل وزارة محكم التدبير ، وإذا هو وزير مهيب يقف فى مجلس النواب وهو دون الخمسين بقليل يلقى بيانا شافيا ، ويلقى على وزارته ضوءاً ساطعا ، ويجيب رغبة المصلح ويدفع شبهة السائل ، فلا يملك النواب أنفسهم من الإعجاب .

ومن يدرى ؟ فلو أن عبد الله فكرى وجه إلى غير الأزهر وانصرف إلى التعليم المدنى ، فقد لا يكون له من الشهرة مثل ما كان ، وقد يكون قصاراه أن يكون موظفا مدنيا أو ضابطا حربيا ، وقد يكون مصيره أن يخمل مع آلاف الخاملين .

فليست المدارس المدنية وحدها كفيلة أن تخرج الرجال، وما أخذ الناس عليها عهداً بذلك يوم أدخلوا أبناءهم فيها ! ولا كتبوا عليها صكا أن تصنع المستحيل مما لا يستحيل ... وليس الأزهر مقدوراً عليه أن يخرج أصحاب الحواشى والتقارير ، ولكنها المواهب الطيبة تنمو فى كل أرض ، والشجرة الخبيثة تخبث ولو غرست فى روض .

تعلم عبد الله فكرى فى الأزهر العلوم التى كانت تدرس فيه فى وقته ، وهى العلوم التى كانت تدرس فى هذا المعهد العتيق فى كل وقت . فهناك علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وبديع . وهناك الفقه يدرس على واحد من المذاهب الأربعة ، ومن شاء المزيد فله أن يستزيد ، وهناك الحديث وكان له فى ذلك الزمان حفاظ كثيرون أخذوا عن الأشياخ السابقين . وهناك التفسير والعقائد والأصول والمنطق ، وهناك عدد كثير من كتب المتون فى كل علم من العلوم العقلية والنقلية ، فمن حفظ هذه المتون فقد خرج من الأزهر بأوفى نصيب .

ولقد كان الاشتغال بالعلوم الطبيعية فى ذلك العهد وما قبله من عهود الظلام موضعا للاتهام بالكفر ، أو على الأقل موضعا للتحقير والزراية . فضاع العلم الطبيعى بين تهمتين لم يرالمتحرجون من العلماء أن يتعرضوا لأقلهما ، وظل ذلك إلى أن جاء الشيخ الأنبابى واستفتى فى جواز تعليم المسلمين العلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية ، فأجاب فى أول ذى الحجة سنة ١٣٠٥ بجواز تعليم تلك العلوم مع بيان النفع من تعلمها ، وصادق الشيخ محمد البنا مفتى الديار يومئذ على تلك الفتوى فى اليوم السابع من الشهر نفسه[١] .

وكان بعد ذلك ما كان من دعوة الشيخ محمد عبده للإصلاح .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ لجورجى زيدان ص ١٨

تصوفه

بلغت موجة التصوف الإسلامى فى عصر محمد على مبلغا عظيما ، وإن كانت فى الحق امتداداً للموجة الصوفية المنتشرة فى عهد الأتراك .

وكان للصوفيين فى ذلك العصر مكان لا يدانيه إلا مكان العلماء . وقد يجمع العالم بين الدين والتصوف . فهو بالنهار يقرأ المتون ويشرح الشروح ، وبالليل يقيم الأذكار ، ويشترك مع « الأبناء » فى الإنشاد ، وتلاوة الأحزاب والأوراد .

وكان الصوفى منهم يتلقى طريقة الأشياخ والأسلاف ، كما يتلقى المحدث طريقة الحديث ، أو كما كان يتلقى الرواة الأخبار والأشعار .

فالشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار المعروف بابن عارفين كان متصوفا وانتهت إليه مشيخة السجادة الوفائية وكان فى الوقت نفسه عالما مشتغلا بالتفسير والحديث واللغة والنحو والأصول[١] .

وليس الجمع بين العلوم الدينية والتصوف أمراً جديداً ، فقد جمع الغزالى بينهما وإن كان دوره فى الحق يقوم حول التوفيق بين تطرف المتصوفة المتأخرين وعقائد الدين الإسلامى[٢] . ومن مبادئ التصوف القول بسلطة الأولياء والاعتقاد بالمكاشفة والكرامات .

وقد كان ذلك الاعتقاد من أركان الفلسفة الصوفية عند الإمام الغزالى ، حتى لقد قال الأستاذ باتون (Patton)[٣] :

---

(١) تاريخ الجبرتى ج ٤ ص ١٨٦ .

(٢) التصوف الإسلامى العربى للطيباوى ص ٤٣ .

(٣) Encyc, of eth. vol XI, P. 63

« لقد اعترفت السنة بالأولياء منذ عهد الغزالى »[١] .

وأخذ هـــذا الاعتقاد يزيد حتى جاء الشعرانى فى أوائل القرن العاشر الهجرى — السادس عشر الميلادى — فذكر من الكرامات والمكاشفات ما يصور لنا طبيعة العصر الذى عاش فيه [٢] ، فلا عجب إذا رأينا قبل مولد عبد الله فكرى امتداد تلك الموجة الاعتقادية . ولا عجب إذا رأينا مؤرخا كالجبرتى يذكر من تلك الكرامات كثيرا فى كتابه النفيس . ولا عجب أيضا إذا رأينا ذلك المؤرخ المحقق يخلع على المتصوفين من ألقاب التعظيم ما كان طبيعة ذلك العصر والعصر الذى قبله فى المغالاة بالتفخيم . فهو يذكر فى وفيات سنة ١١٩٥ هـ وفاة « شيخنا الإمام العارف كعبة كل ناسك عمدة الواصلين وقدوة السالكين صاحب الكرامات الظاهرة والإشارات الباهرة شيخنا وأستاذنا الشيخ محمود الكردى الخلوتى » ويصفه بعد أسطر بأنه « تنزلت عليه الأسرار وسطعت على غرته الأنوار ، وأفيض على نفسه القدسية أنواع العلوم اللدنية » . والشيخ محمود الكردى الخلوتى هذا هو أحد رجال الطريقة الخلوتية التى كان ينتمى إليها عبد الله فكرى باشا ، وقد مات قبل ميلاد المترجم ببضع وخمسين من السنين .

والخلوتية هى طريقة صوفية تنسب إلى السيد محمد الخلوتى أحد رجال هذه السلسلة . وهى فرق كثيرة منها القرباشلية نسبة إلى على أفندى تره باش أحد رجالها . وهذه هى الفرقة الغالبة الخيرة [٣] . ويظهر أن عبد الله فكرى لما لم يجد محيصا عن طريقة يسلكها تبعا لتقاليد عصره اختار طريقة الخلوتية لأنها كما يقول الجبرتى ليس فيها تكليف بما لا يطاق .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) لطائف المنن للشعرانى .

(٣) الجبرتى ج ١ ص ٢٩٦ .

وقد أخذ عبد الله فكرى الطريقة وتلقى أحزابها وأورادها وآدابها وأسرارها على شيخ من شيوخها اسمه الشيخ على حكشة . وكان هذا الشيخ عارفا بالله وله من الكرامات والمكاشفات ما رفعه إلى مقام الأولياء . وقد انتهت إليه مشيخة هذه الطريقة .

ويذكر على باشا مبارك فى خططه التوفيقية أن عبد الله فكرى انتفع على يدى الشيخ على حكشة وشاهد كثيرا من كراماته .

وتلقى الشيخ على الطريقة عن الشيخ صالح السباعى الذى تلقاها عن الشيخ أحمد الدردير .

والشيخ الدردير ولىّ يذكره الجبرتى[1] ، ويصفه بأنه « شيخ الفروع والأصول الجامع بين المعقول والمنقول » ويذكر أنه أخذ الطريق عن الشيخ محمد الحفناوى الخلوتى الذى خصه مؤرخ الحملة الفرنسية بعدد من الصفحات.

وقد مات الشيخ الحفناوى قبل وفاة تلميذه الشيخ محمود الكردى بأربعة عشر عاما .

ويظهر أن الحفناوى هو الذى أنعش الطريقة الخلوتية بعد شيخها السيد مصطفى البكرى حتى كان الوزير التركى محمد راغب باشا يعتقد فيه الاعتقاد كله ، فاجتمع بذلك حوله خلق كثير وانعقدت للطريقة الخلوتية شهرة عريضة .

ولما انتهت مشيخة طريقته إلى الشيخ على حُكشة بعد عشرات من السنين صادف الفتى عبد الله فكرى فيها راحة لقلبه التواق إلى ما وراء الآفاق .

كان إذاً من طبيعة ذلك العصر أن يتصل المرء برجل من المتصوفين يأخذ عنه الطريق ويتلقى عنه الفيض ، فلم يكن عبد الله فكرى فى ذلك خارجا على طبيعة عصره ولا تقاليد وقته ولم يكن ذلك مستغربا من رجل مثله نشأ فى بيت عرف بالعلم والتدين والتقى والورع .

---

(١) تاريخ الجبرتى ج ١ ص ٢٩٩ .

بل قد يكون من المستغرب ألا يرد عبد الله حوض التصوف مع الواردين ، ولقد جذبت موجة التصوف هذه أغلب من تعلموا فى الأزهر وتلقوا على أشياخه . فقد كان من هؤلاء الأشياخ متصوفون جمعوا بين العلوم الشرعية والتصوف فاجتذبوا إليهم طلابهم ، فدخلوا معهم فى عداد التلاميذ والمريدين .

أما الذين لم يدخلوا الأزهر ، بل ساروا فى طريق التعليم المدنى فلم يشغلوا وقتهم بحلقات الأذكار وحفظ الأوراد على الرغم من حفظهم القرآن فى المكاتب قبل أن يتجهوا إلى المدارس المدنية . وتعليل ذلك سهل يسير فإن المدارس المدنية لم يكن فى مناهجها المنظمة ودروسها المعينة مجال « للجذب الصوفى » . . كما أن كثيرا من أساتذتها كانوا من الأجانب الذين لا يقرون هذا اللون من التفكير الذى كان الأزهر بيئته .

ويضاف إلى ذلك أن المدارس المدنية لها أغراض عملية فى الحياة لا تتفق مع فكرة التصوف .

فالبيئة الأزهرية نفسها كانت أرضا طيبة تنمو فيها بذور التصوف . لأن شيوخ الأزهر أنفسهم إن لم يكونوا متصوفين بالفكرة والطريقة ، فهم متصوفون بالعمل .

ولهذا السبب لم نجد على مبارك باشا يأخذ طريق الصوفية أو يتلقى عليهم ، لأنه لم يدخل الأزهر ، ولكنه دخل مدرسة قصر العينى بعد أن أقام فى مكتب ميت العز ، ثم دخل مدرسة أبى زعبل وبعدها دخل المهندسخانة .

ولهذا السبب عينه لم تصب موجة التصوف رجال عصر إسماعيل المدنيين من أمثال محمد درى باشا الجراح الكبير ، وسالم باشا سالم الطبيب الشهير ومحمد قدرى باشا القانونى المشترع ، ومحمود باشا فهمى المهندس وأحد زعماء الثورة العرابية .

ولكن الله شاء لعبد الله فكرى أن يدخل الأزهر ، وأن يتلقى طريق السادة الخلوتية من أحد أقطابها (الشيخ على حكشة) وأن يجمع إلى مكانه فى الأدب العربى آداب المتصوفين .

معلم أبناء الملوك

لم يتح لرجل فيما نعلم أن يعلم خمسة من أبناء الملوك مرة واحدة كما أتيح لعبد الله فكرى .

فقد كان الخديو إسماعيل حريصا على تنشئة أولاده . حريصا على تربيتهم كما كان جده محمد على من قبله .

وكانت أوروبا هى القبلة التى يتجه إليها الآباء من الأسرة العلوية لتعليم أبنائهم .

فهذا محمد على يرسل بعض أبنائه إلى أوربا لإتمام علومهم، وقد انضم إلى بعثته بباريس خمسة من الأمراء هم: محمد عبد الحليم وحسين ومصطفى فاضل وإسماعيل وأحمد رفعت . وهذا إسماعيل العظيم يوفد أبناءه جميعا إلى أوربا ما عدا توفيقا الذى آثر أن يبقيه إلى جانبه ويجلب له أبرع الأساتذة من مصريين وأتراك وفرنسيين .

ومن عجب أن يبعث محمد على نهضة شاملة فى البلاد المصرية وأن يكون للغة العربية نصيب من هذه النهضة المباركة ، ثم لا تجد اللغة العربية من أمراء البيت المالك العلوى تشجيعا بتعلمها أو التخاطب بها . فقد اهتموا باللغات الأجنبية — وخاصة الفرنسية — أكثر من اهتمامهم بالعربية[1] . وكانت التركية هى اللغة التى يتخاطبون بها فى بيوتهم ، ولكن إسماعيل اهتم بالعربية وفرض تعلمها على أولاده . وجلب لهم من المدرسين الممتازين فيها من يصلحون للقيام بعبء تعليمها لأبناء الأمراء .

وتلك يد لإسماعيل مدها إلى العربية التى صارت اللغة الرسمية فى الدواوين . وكان لابد من رجل أمين على أولاد إسماعيل يعلمهم لغة القرآن ويبصرهم

---

(١) الحركة القومية عصر إسماعيل ج ٢ ص ٣٢٨

بجمالها، ويضع عيونهم على مواطن الجمال فيها . فوجد إسماعيل باشا فى عبدالله فكرى طلبته .

وعبد الله فكرى فى ذلك الحين موظف (بالمعية) سافر مع مولاه إسماعيل إلى الآستانة حينما ذهب لتسلم تقليد الولاية وتأدية واجب الشكر للسلطان العثمانى .

وهنا عرف إسماعيل باشا عبدالله فكرى واطمأن إليه ، ورأى صلاحيته لتعليم أولاده العربية ومعها الفارسية والتركية ، وهما اللغتان الشرقيتان اللتان كان عبد الله فكرى يجيدهما . ولم يكن اختيار عبد الله فكرى لهذا العمل نتيجة ترشيح بعض الهيئات أو اختيار بعض الجهات ، ولكنه كان نتيجة اختيار إسماعيل باشا نفسه . فالمترجم له رجل يطمأن إليه ، ويوثق به ، ويعهد إليه بالحرم فيحفظها .

ألم يكن ملازما للخديو فى رحلته إلى استانبول ؟

ألم يكن كاتبا فى الحرم الخديوىّ وملحقا بدائرة ذلك الحرم فى الرحلة إلى استانبول أكثر من مرة ؟

ولقد كان إسماعيل ضنينا بعبد الله فكرى فى معيته ، حريصاً على أن يكون فى خدمته لما آنس منه من صدق الخدمة ومحض الوفاء ، ولكنه اختاره لتعليم أولاده وآثرهم به على نفسه وخاص خدمته . ويبدو ذلك من كتابه إلى ولده توفيق يذكره بأنه عين عبد الله فكرى لتعليمه هو وإخوته مع احتياجه لبقائه فى معيته لفرط اعتنائه بتقدمهم فى العلم ، ويحثه ويحث إخوته على أن يقدروا هـذه العناية الأبوية حق قدرها . وتقدير تلك العناية يكون بجدهم واجتهادهم فى تحصيل العلم[1] .

والحق أن كتاب الخديو اسماعيل لولده توفيق وإخوته وابن عمهم إبراهيم باشا أحمد والأمير طوسون بن سعيد باشا — يحمل من رعاية الآباء

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٢ ص ٤٧

للأبناء ما يجب أن يكون مثلا ، كما يحمل من معانى التقدير لمعلمهم عبد الله فكرى ما يصح أن يكون تزكية عالية من رجل مثل إسماعيل يقدر الأعمال ويزن الرجال .

وإذا كانت العصامية توصل إلى الحكم من ناحية فإنها من ناحية أخرى توصل إلى الاتصال بالملوك والخدمة لديهم والتقرب منهم .

وهكذا لم تمنع علوم الأزهر ودراسة الأزهر عبد الله فكرى أن يكون مربياً لأبناء الملوك وأولاد الأمراء .

ولقد قام عبد الله فكرى بمهمة التعليم والإشراف خير قيام . فتارة يباشر التعليم بنفسه وتارة يقوم بملاحظة غيره من المعلمين . وكان له من حرية الأمر ما جعله يقوم بتقويم طريقة التعليم .

وهذه الحرية فى التوجيه والتقويم والتعليم لم يمنحه إياها الخديو إسماعيل اعتباطا ، ولكنه آنس منه حفاظا على الحرية ، فاطمأن إليه ، وعرف منه الصدق فى المهمات فوثق به ، وجعل أمر بنيه إليه يوجههم إلى الأصلح ويأخذ بهم إلى الأفضل .

ولعل نجاح عبد الله فكرى فى هذه المهمة هو أصدق شهادة على حسن اختيار اسماعيل باشا وصدق فراسته . وإذا كان الأب إسماعيل قد عمد إلى طريقة الاختيار الشخصى لمعلم ولده توفيق وإخوته ، فإن الابن توفيقا لم يلجأ إلى تلك الطريقة حينما أصبح والدا للأميرين عباس حلمى ومحمد على . ولكنه لجأ إلى طريقة المسابقة بين خريجى دار العلوم ، فكان أول الفائزين فيها الأستاذ عبد الرحيم أحمد الذى أصبح فيما بعد ناظرا لدار العلوم والذى صحب الأميرين مدة إقامتهما فى أوروبا حتى لا تنقطع صلتهما باللغة العربية[1] .

وقد نجح عبد الله فكرى فى تحبيب اللغة العربية إلى أبناء إسماعيل وأحفاد محمد على ولاشك أن لتمكنه من العربية ورسوخ قدمه فيها أثراً كبيراً فى ذلك التحبيب .

---

(١) أبناء الملوك — دار الهلال .

ولا شك أيضا أن لطريقته فى التعليم أثرا آخر . فقد ذلل لهم صعابها ، ويسر لهم عسيرها ، ورغبهم فى المروى من أدبها والمأثور من حكمها ، حتى لقد كلفه الأمير توفيق أن يجمع له أبياتا من الأمثال والحكم وأشتاتا من جوامع الكلم وأن يرتبها على حروف المعجم حتى تكون موضوعا للمسامرة والمطارحة ، ومعينة على المحاضرة والمناصحة ، فامتثل المعلم لأمر المتعلم وجمع طائفة من أبيات الحكمة فى رسالة أسماها : « نظم اللآل فى الحكم والأمثال » وقدمها إلى الأمير حين أصبح وزيراً ومشيراً فى عهد والده إسماعيل سنة ١٨٧٩ .

عصامية عبدالله فكري

امتاز عصر محمد على وأحفاده من بعده بإبراز طائفة من العصاميين الذين برزوا فى كل ميدان ونبغوا فى كل موضوع للنبوغ ، وأسعفتهم بذلك مواهبهم واستعدادهم قبل أن تسعفهم آباؤهم وأجدادهم .

على أن كل العصور فى كل الأمم تمتاز بهؤلاء العصاميين ، أولئك الذين يبنون مجدهم بأيديهم لا بأيدى البانين . ولكن عصر هذه الأسرة العلوية الكريمة عاون العون كله على إبراز المواهب والكشف عنها وإتاحة الفرص لها حتى تأخذ ما تستحق وتنال ما هى جديرة به .

ومن هؤلاء العصاميين فى عصر محمد على رفاعة بك رافع الطهطاوى فلقد كان متواضع النشأة عادى المولد . ألم ينشأ من أبوين فقيرين فى أقصى الصعيد ولكن مواهبه دلت عليه فصار زعيم النهضة العلمية الأدبية فى عصر محمد على .

وكثير من رجال عصر محمد على كانوا من طراز رفاعة بك اتضاعا فى الأصل وارتفاعا فى القدر .

وجاء إسماعيل فكان من رجاله على باشا مبارك وهو رجل لم يكن الحكم فى أسرته ، ولا كان فى يدها عصا من السلطان ، ولكنهم قوم عرفوا (بالمشايخ) لطبيعة الفقه والدين الغالبة عليهم ، فبلغ ذلك الفتى الذى تعلم فى مكتب قرية

(ميت العز) مالم يبلغه أبناء الذوات ممن كانت مظاهر النعمة تحيط بهم ومظاهر الثراء تبطرهم .

وكذلك كان عبد الله فكرى فى عصرى إسماعيل وتوفيق فلم يكن آباؤه من رجال الحكم وأصحاب الأمر والنهى . وما عرف عنهم سلطان الحكام وصولة السلطان ، ولكنهم قوم عرفوا بالعلم واشتغلوا بالفقه .

فجد المترجم له عالم اشتغل بالتدريس فى الأزهر ، وأخذ العلم عن أجلاء الشيوخ فى وقته .

ووالد المترجم له محمد أفندى بليغ أزهرى النشأة إلا أنه تحول إلى المدارس المدنية فدرس الهندسة ، والتحق بالجيش المصرى ضابطا ، وعاد إلى الخدمة المدنية مهندساً .

وقد كان قصارى عبد الله فكرى ـ لو قعدت به همته ـ أن يكون عالما كجده ، أو مدرسا فى الأزهر ، إلا أن الفضل الكامن القديم فى هذه الأسرة أبى إلا أن يظهر فى عبد الله فكرى ولو لم تسعده الأحوال على التعلم المدنى ، وشاء القدر السعيد أن يتصل عبد الله فكرى بالخديو إسماعيل فى أول عهده بالحكم ، فاختاره مدرسا للعربية والتركية والفارسية لأولاده توفيق وحسين كامل (السلطان حسين فيما بعد) والأمير حسن ولأميرين آخرين من البيت المالك . ذلك القدر السعيد هو الذى كشف فى عبد الله فكرى عن مواهب ما كانت لتجد طريقها لو لم تسعف الأقدار .

إلا أن الأقدار وحدها لا تسعف إذا لم يكن هناك جد موصول وسعى مبذول . فقد جد عبد الله فكرى واجتهد حتى عرف وهو موظف صغير فى القلم التركى بالحرص على العلم والإقبال على تكميل نفسه بالمعارف ولم تمنعه وظيفته الصغيرة المضنية من التردد على الأزهر قبل ذهابه إلى عمله فى الديوان

وإذا كانت الوظيفة سبباً من أسباب العيش فإن عبد الله لم يجعل عندها منتهى الطلب ولا غاية الأرب ، كما يفعل القانعون من الدنيا بأزهد نصيب . . ولكنه رأى أن المرء لا يتم قدره إلا بعلم يحصله أو بحث يشغله ، وأن الجزاء يكون على قدر التحصيل لا على قدر التأميل . فاشتغل - وهو موظف - بطلب العلم وحده أو على يد أستاذه الشيخ على خليل الأسيوطى ، وكان عالما أزهريا فيه كثير من الفضل وكثير من العلم وخاصة فى اللغة والفلسفة والحديث .

وكأن عبد الله فكرى كان يعد نفسه بهذا التكميل ليكون رجلا له قدره ما دامت تقطعت به فى سبيل التحصيل المنظم الأسباب . . . .

وتلك العصامية فى عبد الله فكرى لا تعيبه ولا تعيب واحدا من أحفاده وأبناء أسرته ، كما أن العظامية لا تشرف أصحابها إذا لم يشرفوها ولولا ذلك ما ظهر فضل العصاميين على العظاميين .

ولقد كان كثير من وزراء عصر إسماعيل من العظاميين وكذلك كان الشأن فى عصر توفيق الذى كان هو نفسه وزيرا فى عهد والده الخديو إسماعيل . ولكننا نلمح فى خلال العهدين وزراء كونوا أنفسهم وصنعوها بأيديهم مثل على مبارك ومصطفى رياض وعبد الله فكرى .

الحق أن عبد الله فكرى جد فى الطلب وشق طريقه إلى الحياة أخذا بالأسباب التى قل أن تخيب نتيجتها ما دام الحظ مواتيا . ولقد واتاه الحظ مع الجهد الذى بذل ، فظل يلمع نجمه فى كل وظيفة حلها حتى صار إلى الوزارة أو صارت هى إليه . فما وقف به الطلب ولا انقطع منه الجهد ، ولكنه ظل يكتب وينتقل إلى الشام يحاضر علماءها ويحاضرونه .

وقدرت له الحكومة علمه وفضله . فأوفدته رئيسا لمؤتمر المستشرقين باستكهلم . فأظهر فيه من النشاط ما سنعقد له فصلا آخر . والعصاميون لا يؤمنون بالظروف وحدها فى تكوين حياتهم ، لأنهم هم الذين يخلقون الظروف ويكونونها ، وكان عبد الله فكرى مؤمنا بالأخذ بالأسباب لأنها عدة الطالب

ووسيلة الراغب . وقد تجلى ذلك منه فى أعماله ، كما تجلى فى أحد أقواله إلى على باشا مبارك . فقد كتب إليه رسالة من « لوسرن » بسويسره فى طريقه إلى المؤتمر يقول فيها « ولا جرم فالحق جلت نعمته وعلت عظمته يعطى على السؤال بلسان الحال والاشتغال بالسبب ما ليس يعطيه على السؤال بلسان المقال الذى يعتريه الكذب فى الرغب والرهب .... فالزارع منا إذا غرس شجرة أو ألقى فى الأرض الحرة بذرة ثم تولاها من السقى والخدمة بكل ما فى وسعه من الهمة قد سأل الله سبحانه بلسان حاله فأعطاه ما استحق وفوق ما استحق من نواله . فقد أجرى عادته وهو أكرم مسئول أن لايقابل سؤال لسان الحال إلا بالقبول بخلاف ما لو زرع فى غير مزرع أو أعرض عن واجب الخدمة وامتنع »

وقد كان يصح أن يكون عبد الله فكرى معلما لأولاد إسماعيل ثم يظل على حاله كما ظل كثير من أبناء معلمى الملوك . ولكن الهمة العالية تتخذ من خيوط الشمس أسبابا إلى بلوغها فتتعلق بها . وقد أخذ عبد الله فكرى بتلك الأسباب .

عبد الله فكرى والمعارف

تعتبر خدمة عبد الله فكرى فى إدارة المكاتب الأهلية أول اتصاله العلمى بديوان المدارس . والحق أنه أول وكيل لهذه الإدارة التى أنشئت فى ٢٧ مارس سنة ١٨٧١ .

وقد كان ناظر ديوان المدارس فى أول عهد عبد الله فكرى بإدارة المكاتب مصطفى بهجت باشا . ثم صرف عنه فى مايو سنة ١٨٧١ وتولى نظارته المرحوم على باشا مبارك للمرة الثانية .

ولم يكن عبدالله فكرى فى وكالة الديوان خاملا ولاقليل الإنتاج ، وكأنما كانت تعده هذه الفترة ليكون ناظرا للمعارف حين اقتضت الأمور إسنادها إليه بعد ذلك بما يزيد على عشر من السنين .

وفى سنة ١٨٧٨ أى فى عهد نظارة نوبار باشا الأولى عين عبد الله فكرى وكيلا لنظارة المعارف . وكان ناظر المعارف فى ذلك الحين العالم الجليل على باشا مبارك . وكان اختياره لصديقه عبد الله فكرى اختيارا أملته المصلحة العامة ولم تملة اعتبارات أخر . فقد تعارف الرجلان قبل ذلك وعرف على مبارك فى عبد الله فكرى من الصفات ولمس فيه من الكفاية والمقدرة ما جعله يطمئن إلى اختياره له . فقد كان عبد الله فكرى وكيلا لإدارة المكاتب فى عهد على مبارك باشا سنة ١٨٧١ وأظهر فى تلك الإدارة من ضروب النشاط وحسن الإدارة ما لفت نظر على مبارك إليه . فادخره إلى أن عين ناظرا للمعارف سنة ١٨٧٨ ورغب فى أن ينتفع بجهوده فى وكالتها .

ولقد تعاقب فى فترة السبع السنوات هذه على نظارة المعارف سبعة وزراء هم بترتيبهم فى النظارة الأمير حسين كامل باشا ومصطفى رياض باشا ومحمد ثابت باشا والأمير طوسون باشا ويحيى منصور باشا ومصطفى رياض باشا وإسماعيل أيوب باشا فلم ينتفعوا بعبد الله فكرى ولم يلتفتوا إليه إلى أن جاء على مبارك وهو رجل يزن الرجال بميزان دقيق ويعرف لهم فضلهم فاختاره وكيلا له ولا يعرف الفضل من الناس إلا ذووه .

رجل المعارف

تولى على مبارك باشا نظارة المعارف فى عصر إسماعيل ثلاث مرات ولم تزد أطول مرة منها على سنتين وبضعة أشهر ، وهى نظارته الأولى . ولم يكن لعبد الله فكرى فى تلك النظارة عمل . أما النظارة الثانية لعلى مبارك فى مايو سنة ١٨٧١ فقد كان عبد الله فكرى وكيلا لإدارة المكاتب فيها . أما نظارة مبارك الثالثة فى أغسطس سنة ١٨٧٨ فقد كان عبد الله فكرى وكيلا لها .

والحق أن هذه هى الفترة التى أتيح لعبد الله فكرى فيها أن يظهر مواهبه فى المعارف على أحسن صورها . فقد كان له من النفوذ كوكيل للنظارة ما أعانه على تنفيذ ما يراه فى التعليم وقد أعانه على ذلك وجود ناظر كعلى مبارك مصلح بطبعه وفطرته .

ولقد كان عبد الله فكرى قبل أن يدخل ديوان المكاتب موظفا بديوان المالية سنة ١٨٦٩ — ١٨٧٠ وكان على مبارك فى تلك السنة ناظرا للمعارف ، فجمع الفضل بين الرجلين على بعد ما بينهما من طبيعة العمل ونوعه . فأين المعارف من المالية ؟ وأين ناظر كبير من موظف صغير ؟ ولكن النفوس الكبيرة تنتج مهما كان نوع عملها وقدره ومهما كان الجو الذى تعيش فيه . ففى ذلك الحين أسست دار الكتب سنة ١٨٧٠ بمجهود على مبارك « ناظر المعارف » وبفكرة الخديو إسماعيل — كما جاء فى الخطط التوفيقية فى الجزء التاسع ص ٥١ — ولكن عبد الله فكرى (الموظف الصغير بديوان المالية حينئذ) كان له مشاركة كريمة فى هذا الفضل [١] ، فقد عهد إليه النظر فى أمر الكتب التى كانت بديوان المحافظة على ذمة الحكومة وإبداء ما يراه صالحا من الرأى فى أمرها ومصيرها . فلبث مدة يتردد على ذلك الديوان ويقلب الكتب فحصا ويقتلها بحثا ، وعز عليه أن تظل تلك النفائس مطمورة فى مخازن لا تصل إليها يد ولا ينتفع بها إنسان ، واقترح فى تقرير رسمى مفصل أن ينشأ لها مكان خاص يعد لهذا الغرض وحده ، وينظم على وجه ييسر الانتفاع بها ، أو تنقل إلى ديوان المدارس لتودع فى المكتبة التى كان يعدها على باشا مبارك فى ذلك الوقت ، وبين فى تقريره أن الوجه الثانى أولى بأن يؤخذ به ما دام المكان جاهزا والعمل للمكتبة الخديوية جاريا .

---

(١) المقتطف المجلد الخامس عشر ص ١١ والخطط التوفيقية ج ٢ ص ٤٧

ولقد صادف هذا المقترح هوى فى نفس على مبارك باشا ورأى الأخذ به . ونقلت الكتب فعلا من ديوان المحافظة إلى المكتبة الخديوية الناشئة فى سراى درب الجاميز بالقاهرة .

ولقد أثبت على مبارك نفسه فى خططه تلك الحقيقة التاريخية ولم يجد فى سردها ما ينقص من عمله الكبير ، بل رأى أن يشرك معه رجلا وضع لبنة واحدة فى البناء الذى أقامه . ولم يشأ له خلقه وأمانته للحق والتاريخ أن يغفل ذكر تلك الحقيقة وهو فى معرض الحديث عن عبد الله فكرى والترجمة له فى خططه .

والحق أن عمل عبد الله فكرى فى اقتراح تحويل كتب ديوان المحافظة إلى الكتبخانة الجديدة الناشئة ليس عملا إنشائيا خطيرا كعمل على مبارك نفسه ولكنه على كل حال اقتراح وجيه أوحت به إليه فكرة قائمة حينذاك بالفعل إلا أن تنبه عبد الله فكرى (الموظف الصغير) إلى فكرة التحويل وقبول على مبارك لهذه الفكرة كما وضعها عبد الله يُعد موضعا للتقدير لا يصح إغفاله فى هذا المقام .

فى مسيرة المعارف

فى عهد المغفور له الخديو توفيق باشا تولى رياض باشا رياسة مجلس النظار للمرة الأولى فى سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، وكان ناظر المعارف فى وزارته المرحوم على باشا إبراهيم ، وكان عبد الله فكرى لا يزال وكيلا للمعارف .

وقد شعرت الحكومة فى ذلك الحين بنقص فى الموظفين لا يمكنها من القيام بعملها على أحسن وجه تقوم به حكومة ، فرفع على باشا إبراهيم ناظر المعارف تقريرا إلى مجلس النظار . وقد رفعه رئيس المجلس بدوره إلى الخديو

توفيق مشفوعا بخطاب[1] يبين وجه الحاجة فى إنشاء هذا «القومسيون» ورأى رياض باشا فى خطابه تشكيل القومسيون على وجه تتحقق به الغاية من إنشائه برياسة ناظر المعارف على إبراهيم باشا وعضوية جماعة من المصريين والأجانب منهم عبد الله فكرى وكيل المعارف، وقد وافق الخديو على تشكيل المجلس، وصدر بذلك الأمر العالى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٠.

ولم يكد يصدر قرار الموافقة من الخديو حتى أخذ القومسيون يدرس حالة التعليم فى مصر وانتهى به الدرس بعد بضعة أشهر إلى تقرير مفصل يبين فيه حاجات البلاد إلى زيادة عدد المدارس وتعديل برامج التعليم وحاجة الحكومة إلى فرض ضريبة شرعية على أموال الأطيان كما هو حادث فى البلاد الأوربية، وهذه الضريبة تجىء وقت جباية أموال الأطيان الاعتياديه، ولم يفت القومسيون أن يتعرض للمدارس الأجنبية فى مصر ووجوب ملاحظة نظارة المعارف لها حتى يعلم على أى قاعدة تسير وإلى أية غاية تهدف، لأن بها من المصريين أكثر من ٥٢ فى المائة كما لم يفت القومسيون النظر فى أمر البعثات العلمية ووجوب رسم خطة لها ينتخب النابغون من الطلاب بموجبها.

والحق أن الناحية القومية ومراعاة المصلحة الوطنية فى ذلك التقرير كانت من وحى الثلاثة المصريين فيه وهم على باشا إبراهيم وعبد الله فكرى وسالم باشا سالم مدير مصلحة الصحة.

ولا يعرف بالطبع مدى ما بذله كل عضو فى هذا «القومسيون» إلا أن الصفة الغالبة على قراراته كانت تميل إلى جانب النهوض بالتعليم فى مصر ولا شك أن نيات الأعضاء المصريين وصدق إرادتهم كانت من عوامل التوفيق فى نجاح مهمة «القومسيون».

---

(١) التعليم فى مصر لأمين سامى باشا ص ٣٨، ٣٩

ولا شك أن فضل عبد الله فكرى فى ذلك هو فضل الشريك الذى يرجع منه بأوفى نصيب .

وكان من أثر نجاح « القومسيون » فى دراسته أن تشكل على أثر ذلك المجلس العالى للمعارف لينظر جميع الطرق التى من شأنها استدامة حسن سير المدارس وتقدم العلوم والفنون[١] .

فى المجلس العالى للمعارف

فى ٢٨ مارس سنة ١٨٨١ وفى نظارة مصطفى رياض باشا الأولى صدر الأمر العالى بتشكيل المجلس العالى بنظارة المعارف تحت رياسة ناظر المعارف على إبراهيم باشا وعضوية ٢٤ عضوا من رجال العلم والفكر فى مصر فى ذلك الحين منهم على مبارك ناظر الأشغال وعبد الله فكرى وكيل المعارف وإسماعيل الفلكى ناظر المهندسخانة وعثمان غالب وكيل مدرسة الطب والشيخ محمد عبده رئيس تحرير الوقائع والشيخ حسين المرصفى المدرس بدار العلوم والشيخ حسونه النواوى المدرس بالحقوق وبعض الانجليز والفرنسيين[٢] .

ولا شك أن اشتراك عبد الله فكرى فى هذا المجلس الجديد قد أعده — بجانب عمله فى وكالة المعارف - ليدرس حاجات البلاد فى التعليم . وهى وإن كانت حاجة محدودة ببعض تيارات سياسية واتجاهات أجنبية إلا أن المجلس استطاع أن يخطو بالتعليم فى مصر خطوة كانت على ضآلتها حلقة فى سلسلة التعليم فى مصر . فتوطدت بفضله مدرسة المعلمين التى أنشئت فى أكتوبر سنة ١٨٨٠ وكان أول ناظر لها مسيو موجيل . كما استقرت مدرسة المنصورة التى أنشئت فى يناير سنة ١٨٨١ وكان أول ناظر لها المرحوم أمين أفندى سامى

---

(١) التعليم فى مصر ص ٤٤

(٢) تجد أسماءهم كاملة فى التعليم فى مصر ص ٤٤ و ٤٥

(أمين سامى باشا فيما بعد) كما أنشئت - أو بعبارة أضبط - شرع فى إنشاء مكاتب فى طوخ وقليوب والجيزة .

وقد كان يرجى لهذا المجلس النافع أن يبقى طويلا حتى يصل جهده فى إصلاح التعليم على القدر الذى كانت تتيحه له ظروفه وطبيعة تشكيله . فقد كان فيه من الأجانب عدد يزيد على المصريين ، كما أن بعض هؤلاء الأجانب قد حشدوا فيه حشدا من غير أن يراعى فى اختيارهم انتماؤهم إلى هيئة التعليم (١) إلا أن بقاءه كان مرهونا ببقاء وزارة رياض باشا الذى أنشأه واختار أعضاءه فلما سقطت وزارة رياض وابتدأ الجو السياسى تلوح فيه بوادر الثورة العرابية انفض هذا المجلس بعد أن عاش بضعة أشهر .

فى نظارة المعارف

اختار على مبارك عبد الله فكرى وكيلا لوزارة المعارف يوم أن كان الأول وزيرا لها للمرة الثالثة سنة ١٨٧٨ . وإذا دل هذا الاختيار على تقدير أهل الفضل لأضرابهم ، فإن فيه دلالة أخرى على حسن اختيار الأديب للأديب . فعلى مبارك أديب يعد من أعلام النهضة الأدبية فى عصره ، وعبد الله فكرى أديب كذلك من طراز صاحبه ، وكل من الرجلين شاعر وكل منهما مؤلف ، فجاء هذا الاختيار دليلا على اتفاق فى المشارب ، واتفاق فى التمرس بأعباء المناصب .

ولم يخلف عبد الله فكرى أمل وزيره وصديقه على مبارك فيه ، وإذا كان الوزير يختار من الرجال من يطمئن إلى عملهم معه ويرتاح إلى إخلاصهم له فإن على مبارك كان بغير شك مطمئنا إلى عبد الله فكرى لقديم الصلة بينهما وتمكن المودة من قلبيهما .

---

(١) الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى بك ص ٦٠

وهذه الصلة المتينة بين هذين الفاضلين تبدو فيما تبودل بينهما من رسائل ؛ وتبدو فيما كتبه على مبارك فى الخطط عن عبد الله فكرى .

وإذا كانت « الآثار الفكرية » لا تحوى من رسائل عبد الله فكرى إلى صديقه على مبارك إلا قدرا ضئيلا إذا قيس بما كتبه إلى الشيخ الليثى مثلا ، أو على بك فهمى رفاعة أو إلى الشيخ عبد المجيد الخانى من أكابر علماء دمشق فإن هذا القدر الضئيل يدل على تمكن الصلة بين الرجلين .

فقد أرسل إليه عبد الله فكرى من الآستانة رسالة فى ١٨٧١ يذكره بما كان بينهما من مسامرات ويذكر له أنه باق على عهده حافظ على وده ، وأرسل إليه بعد ذلك بأيام رسالة يرد بها على كتاب الوزير إليه ويوصيه بأحمد فارس الشدياق صاحب « الجوائب » ويوصيه خيرا بتلك المجلة التى تجوب سائر البلاد شرقا وغربا — على حد عبارته .

ظفر عبد الله فكرى بثقة الوزير الأديب على مبارك باشا قبل أحداث الثورة العرابية ، فلما جاءت وزارة محمود سامى البارودى الشاعر الأديب اختار معه من الوزراء من يطمئن إليهم ، وراعى فى اختيارهم إرضاء الشعور الوطنى الذى أخذ فى ذلك الحين يظهر بعد أزمة يناير سنة ١٨٨٢ وبعد مذكرة انجلترا وفرنسا إلى الحكومة المصرية .

وهنا يظهر اسم عبد الله فكرى فى قائمة المرشحين للوزارة ، وهنا يستقر رأى النواب الخمسة عشر فى دار البارودى على الوزراء الجدد وإذا بعبد الله فكرى يُعطى وزارة المعارف .

ولاشك أن اختيار عبد الله فكرى للوزارة كان برضى تام من البارودى وزعماء العرابيين ، ولا يعنى ذلك أن عبد الله فكرى كان عرابيا ، ولكن المعروف أنه كان مناصرا للحركة ، ولولا هذا الميل فيه ما اطمأن إليه العرابيون فى وزارة تعد وزارتهم .

والحق أن البارودى أحسن اختيار وزير المعارف ، ولم يجانبه التوفيق فى هذا

الاختيار ، فعبد الله فكرى خبير بالمعارف ، وقد ظل بضع سنوات وكيلا لها وعضوا فى مجلسها الأعلى ، فهو ليس دخيلا عليها ولا غريبا فيها ، ولما خلا منصب وكيل المعارف بقبول عبدالله فكرى منصب الوزارة كان من الضرورى أن يملأ ذلك المنصب ، وكان من الضرورى أن يختاره رجل يرتاح إليه الوزير ويرى فيه الأهلية للقيام بأعبائه ، فوقع الاختيار على رجل من أهل العلم والفضل هو على بك فهمى رفاعة بن العالم الكبير رفاعة رافع الطهطاوى من رجال البعثات النابغين فى عهد محمد على الكبير .

وليس على فهمى رفاعة غريبا على عبد الله فكرى ولا جديداً عليه فقد عقد الود بينهما أمتن أواصره ، وبين الرجلين مكاتبات تدل على حسن المودة وارتفاع الكلفة ، وقد زادت هذه الصلة بعد ما جمعتهما طبيعة العمل فى المعارف .

وكان من المنتظر أن ينتج الرجلان فى المعارف لو أن الأمور جرت فى مصر على حال من القرار ، إلا أن الثورة العرابية أخذت تأخذ وجها آخر ، وأخذت الفتن تظهر بعد انفضاض مجلس النواب ، وحدثت مؤامرة الضباط الشراكسة ، وكان الحكم العسكرى عليهم مبعثا لقلاقل جديدة فى البلاد ، وجاء الأسطولان الانجليزى والفرنسى إلى مياه الاسكندرية فى ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ وبدت لهجة التهديد من جانب انجلترا وفرنسا فى مذكرتهما إلى الحكومة المصرية فى ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ ، وكان من مطالب الحكومتين استقالة وزارة البارودى . واستقالت الوزارة فعلا فى ٢٦ مايو أى فى اليوم التالى للمذكرة ، بعد أن ظلت فى الحكم ثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع .

فماذا يستطيع وزير أن يفعل فى فترة قصيرة كهذه كانت مليئة بالأحداث ؟ الحق أن جواب هذا السؤال متروك لمضبطة مجلس النواب يوم الأحد ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٢ ومضبطة المجلس نفسه يوم الأحد ١٢ مارس سنة ١٨٨٢

فى الجلسة الأولى قدم عبد السلام بك المويلحى نائب القاهرة تقريرا عن تعميم التعليم ، وشفعه بمقترحات تدل على الاتجاه القومى فى السياسة التعليمية ،

فاقترح أن يقدم وزير المعارف إلى المجلس بيانا بعدد المدارس الابتدائية فى القطر — حكومية كانت أو حرة — وبيانا بما يمكن إنشاؤه من المدارس وعدد المدرسين الذين يمكن تخرجهم فى عام ١٨٨٢ لسد حاجة المدارس .

على أن خيرا من ذلك كله اقتراحه تعيين لجنة من مجلس النواب للنظر فى إنشاء مكاتب ابتدائية بالبلدان والقرى التى ليس بها مكاتب ، وأن تكون نفقات إنشائها على حساب أهل البر بمساعدة النواب الذين يستجيب الأغنياء لهم ويلبون نداءهم .

وفى الجلسة التالية حضر عبد الله فكرى إلى المجلس وبين يديه كتابه الكريم ! وفى رأسه عقله الحكيم ، وبين جنبيه قلبه الوطنى الكبير .

حضر عبد الله فكرى ومعه من البيانات ما يشفى غلة كل سائل ، ومعه من الرأى الناضج والخبرة الطويلة بمسائل التعليم ما جعل النواب يرتاحون إليه ، ويستقبلون بيانه بموجة من السرور والرضى .

وكان الوزير بارعا فى اكتساب ثقة السائل ، واجتذاب شكره وثنائه ، وكان الوزير بارعا فى تأييد النائب بتخفيف عبء التعليم عن عاتق الحكومة ، واستحثاث النواب على المساهمة فى هذا الواجب بما لهم من نفوذ وجاه فى دوائرهم .

وكان الوزير بارعا حينما خفف المئونة وهون الحمل على المساهمين فلم يغال فى رونق المكاتب وتحسينها ، ولم يجعل فيها من شروط البناء ما تنوء به حالة المساعدين ولكنه راعى البساطة فى البناء واليسر فى التكاليف .

وكان الوزير بارعا حين اقترح أن تبنى تلك المكاتب من اللبن فإن القصد هو المنفعة من المحل لا المحل بالذات .

وكان الوزير بارعا حينما طلب القصد والاعتدال فى النفقات ، فإن ذلك خير من الإحجام المفضى إلى الحرمان .

وكأنه رحمه الله ، وهو يتكلم أمام النواب كان يذكر قول الشاعر :

بث النوال ولا تمنعك قلته فكل ماسد فقراً فهو محمود

ألا إن هذا الشاهد لم يحضره والمثل الشعرى لم يسعفه ، فأسعفته الآية الكريمة (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) .

وكان عبد الله فكرى وهو فى المعارف حين يعرض الرأى عليه ويرى فيه وجها للمصلحة لايتردد فى قبوله والوعد بتنفيذه ، وتلك صفة الوزير العامل يقبل الإصلاح من مقترحه ، ويأخذ الرأى من صاحب الرأى ، لأنه لا يرمى إلى استئثار ، ولا يميل إلى استبداد ، ولا ينفرد بالأمور يمضى فيها على وجهه هو لا على وجوه المشيرين .

فقد طلب النائب محمد بك الشواربى فى تلك الجلسة تدريس مادة الزراعة فى المكاتب المزمع إنشاؤها ، وهى مادة كانت مهملة فى خطط المدارس ، فارتاح الوزير لهذا الطلب وأقر النائب على رأيه . وقد تمكن حب المعارف من لحم عبد الله فكرى ودمه ، فهو دائما مهموم بها ، معنى بأمرها ناظر فى خططها وبرامجها ، وهو لا يمل أن يعمل فى الوزارة أو أن يعمل فى لجنة تتصل بعمل الوزارة ، فهو يعرض نفسه على لجنة المعارف بمجلس النواب ليحضر اجتماعاتها ويشترك معها فى مهمتها .

وما كان لزاما عليه — وهو وزير — أن يفعل ذلك . وخاصة فى حياة نيابية ناشئة ، ولكنه يرى العمل فرضا على الرجل فى أى مكان ، ويرى الخدمة الوطنية ديناً على الرجل يؤديه فى كرسى الوزارة ، أو فى أى مقعد من مقاعد اللجان .

شهادة الأستاذ الإمام فى عبد الله فكرى باشا

يتعرض الرجال حينما يتولون عملا من الأعمال لمدح المادحين أوعيب العائبين ، وخير المدح ما كان عن صدق وحق ، وخير النقد ما كان عن نزاهة وحسن قصد ، وفى ضوء هذا النوع من المدح والنقد تتميز أقدار الرجال ، وتتضح قيم الأعمال ، ويتسنى للمؤرخ بعدذلك أن يبنى أحكامه ويضع قواعده . ولقد عاصر الشيخ محمد عبده عبد الله فكرى فى حاليه فى المعارف وهو وكيل ووزير . وللأستاذ الإمام نظرات فى الرجال لم تخطئ فراستها ولم يخب تقديرها . وتاريخ الشيخ محمد عبده معروف بالجرأة فى الرأى ، والصراحة فى النقد والقصد إلى الحق فيما يكتب ، ومن هنا كان لرأيه قيمة ولميزانه خطر ، ولقد كان نصيب وزارة المعارف من الشيخ محمد عبده بضع مقالات فى الوقائع المصرية الرسمية ، وكان حينذاك رئيسا لتحريرها ، وهى مقالات تدل على طبيعة الإصلاح والتوجيه والارشاد المتأصلة فى نفس الشيخ ، والتى رافقته محررا وقاضيا ومفتيا وحكيما .

ومن عجب أن الشيخ كان بحكم عمله فى الوقائع موظفا فى الحكومة إلا أنه لم يقصر فى توجيه النقد إليها متى وجد إلى ذلك داعيا . وكان فى الشيخ براعة فى توجيه النقد إلى الحكومة على سبيل الحكاية عما يقال لا على لسانه هو . وبذلك أعفى نفسه من تبعة المؤاخذة وأرضى نفسه بإبداء العيب واقتراح العلاج ، على أن هذه الطريقة لم تخف على وزير المعارف على باشا إبراهيم . فقد شكا الشيخ إلى رئيس الوزراء رياض باشا وطلب منه أن يأمره بمنع مقالات محمد عبده لأن فيها تعريضا من موظف صغير إلى وزير خطير . ولكن رياض باشا كان أرحب صدرا وأكثر قبولا للنقد من وزير معارفه فقد أجابه بأنه لا بد من إصلاح الخلل[1] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا ج ٢ ص ٦٩ .

والحق أن مقالات الشيخ محمد عبده المنشورة فى الوقائع المصرية خاصة بالمعارف قد نبهت الأذهان إلى كثير من الإصلاح كالاهتمام باللغة العربية وإنصاف المدرس وتقديره ومكافأته مكافأة حقيقية مادية لأن المكافأة بعبارات الثناء ومنشورات الشكر لا توسع عيشا على مضيق عليه فى عيشه (ولا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة المعيشية)

وكالاهتمام بالكتب المدرسية وتصنيفها واختيار مؤلفيها من المشهود لهم بسعة الفكر والاطلاع على القديم والحديث . وكالعناية بالتربية الدينية فى المدارس تربية تقرب المخلوق من ربه وتربى فيه مكارم الأخلاق التى بعث النبى ليتمها .

وكان من أثر هذه المقالات إنشاء مجلس المعارف الأعلى فكان عبد الله فكرى والشيخ محمد عبده من أعضائه كما ذكرنا سابقاً .

وكان لعبد الله فكرى وهو وكيل للمعارف آراء ومقترحات ، وكان له إلى الوجه البحرى زيارات لم تخل من توجيه فى التعليم ونقد لما يستحق النقد ومطالب لم يسعفه وزيره بإجابتها ولم يعجل بتحقيقها . فكتب الشيخ محمد عبده فى الوقائع يستحث أولى الأمر على الانتفاع بمطالب الوكيل وجعل تأجيل تلك المطالب موضوعا لسؤال الناس .

ولقد أشاد الشيخ محمد عبده فى ذلك المقال (بالآراء القومية التى أبداها عبد الله فكرى وبالمطالب المهمة للوكيل التى لا بد من تقريرها والاسعاف بها) وأثنى على غيرته ورفعة همته .

رحلاتي

للمستشرقين مؤتمر يعقد كل حين فى عاصمة من عواصم الأرض ويجتمع فيه المشتغلون بالعلوم الشرقية ويلقون أبحاثا ضافية عن مسائل تتعلق بتاريخ الشرق وفلسفته وعلومه وأدبه .

ولا ينسى فضل المستشرقين وجهدهم الشخصى فى سبيل اللغة العربية وحفظ آثارها ودراسة تاريخها ولغتها . وتاريخ الاستشراق قديم يرجع إلى النهضة الأوروبية فى القرن الثالث عشر الميلادى . وأول من سعى فى ذلك فردريك الثانى والفونس ملك قشتالة فقد جمعا المترجمين فى بلاطيهما . فنقلوا كتب العرب إلى الأسبانية ومنها إلى اللاتينية .

وأول حركة جدية للاستشراق والاشتغال باللغة العربية ترجع إلى القرن السابع عشر حينما طبع أربانيوس فى ليدن سنة ١٦١٣ م أول كتاب فى قواعد اللغة العربية .

ولم تمنع جهود المستشرقين الشخصية أن يجتمعوا على هيئة مؤتمرات كما هى العادة فى المؤتمرات الأخرى الدولية كمؤتمر البريد ومؤتمر الأديان وغيرهما . وأول مؤتمر للمستشرقين عقد فى مدينة باريس سنة ١٨٧٢ [1] وتوالت بعده

---

(١) فى جورجى زيدان هكذا ، وفى ارشاد الألبا سنة ١٨٧٣ .

مؤتمرات عربية فى لندن وبطرسبورج وفلورنس وبرلين وليدن وفينا . إلى أن كانت سنة ١٨٨٩ التى عقد فيها مؤتمر المستشرقين باستكهولم .

فى تلك السنة عين الكونت دى لاندبرج قنصلا عاما فى مصر من قبل الملك أوسكار الثانى ملك السويد والنرويج ، وفى تلك السنة عينها أبلغ هذا القنصل الحكومة المصرية نبأ عقد المؤتمر الثامن للمستشرقين فى استكهولم وكريستيانا عاصمتى السويد والنرويج ، وأن حكومة بلاده ترغب أن تمثل مصر فى ذلك المؤتمر . ولقد رحبت حكومة مصر بهذه الرغبة ووجدت فى قبولها تعزيزاً لمركز البلاد العلمى فى القارة الأوروبية .

اتجهت رغبة الخديو توفيق إلى إيفاد عبد الله فكرى باشا على رأس الوفد المصرى ، ولكن سموه رأى إشفاقا عليه ألا يفاتحه فى ذلك الأمر بنفسه خشية أن تكون موافقته لأمر مولاه على كراهة منه ، فتحمله الطاعة على القبول ولو كان فى غير مصلحته . فأوعز سموه إلى القنصل نفسه بأن يدعوه وأن يحتال عليه حتى يقنعه بالاستعداد للرحلة التى سيخدم بها بلاده ولغته .

وكان فى القنصل براعة فى الطلب وتلطف فى الاقناع فما زال بالمترجم له يهون عليه الأمر ويسهل له الصعب . واستعان فى ذلك بولده أمين فكرى بك (باشا) الذى وجد الفرصة مواتية لكى يهيىء لوالده سبيل الاطلاع على بلاد الغرب ومشاهدة المدى الذى بلغته فى الحضارة والمدنية ، حتى تكون المعرفة بها معرفة رؤية وبصر لا معرفة سماع وخبر .

وكان الخديو توفيق متلطفا مع عبد الله فكرى حينما قابله بعد أن قبل رياسة الوفد . وكان مما قال له (فجعلت الكلام إليك من غيرى وقلت لنفسى إن قبل حصل المراد ، وقلنا ذلك ما كنا نبغى وإن امتنع لم نحمله على ما يكره).

اجتمع مجلس النظار فى يوم الخميس ٢٤ شعبان سنة ١٣٠٦ — ٢٥ إبريل سنة ١٨٨٩ تحت رياسة الخديو توفيق نفسه وقرر الموافقة على ما قررته لجنة المالية من احتساب مصاريف الوفد من المصاريف غير المنظورة . وقد تعين

فى تلك الجلسة أسماء الأعضاء المسافرين لتمثيل مصر فى المؤتمر ، وهم عبد الله فكرى باشا ، وأمين فكرى بك والشيخ حمزة فتح الله ومحمود أفندى عمر .

والحق أن اختيار الأعضاء دل على تقدير للمهمة الملقاة عليهم ، فالرئيس معروف بأدبه وتمكنه من اللغة العربية فضلا عن توليه وزارة المعارف قبل ذلك ، وأمين فكرى بك ـ ولد المترجم له ـ من رجال القانون وممن درس الحقوق فى فرنسا وكان فى قلمه سلاسة مكنته من أن يكتب هذه الرحلة فى كتابه : إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا . ولقد يخيل إلى المرء أول الأمر أن اختيار أمين فكرى فى عضوية الوفد كان لمرافقة والده أو لمعرفته باللغة الفرنسية التى قد يحتاج إليها أعضاء الوفد الرسمى فى حلهم وترحالهم ، ولكن أمين فكرى ألقى رسالة فى المؤتمر تدل على اطلاع واسع كما تدل على حب للغة العربية ، فقد أبطل رأى القائلين باستعمال العامية بدلا منها فى الكتابة وأدلى من الحجج والبراهين المنطقية ـ بله العاطفية ـ ما دل على تمكن من الموضوع الذى اختار الكلام فيه . وأعجب من ذلك أنه استشهد من عامية المغرب والشام ولبنان بما يدل على إحاطة واسعة بعامية هذه الأقطار .

أما الشيخ حمزة فتح الله فكان حجة لغويا فى وقته . وكان يعى من ألفاظ اللغة وتراكيبها ووجوه استعمالها والإحاطة بغريبها ما عقد له الإمامة اللغوية فى زمانه . ولقد مثل مصر فى مؤتمر المستشرقين السابع الذى عقد بمدينة فينا . فلم لا يكون مندوبها فى المؤتمر الثامن باستكهولم . أما العضو الرابع وهو محمود أفندى عمر فكان من نوابغ المتخرجين فى دار العلوم وكان مدرسا للغة العربية بمدارس الحكومة واشتهر بمؤلفاته الكثيرة التى منها « القول الحق فى تاريخ الشرق » و « تنوير الأذهان فى الصرف والنحو والبيان » المطبوع بمطبعة الأعلام سنة ١٣٠٣هـ و « أدب الناشىء » وهى رسالة فى تربية الأطفال و « الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية » المطبوع بمصر سنة ١٣٠٩هـ . و « التذكرة فى تخطيط الكرة » طبع سنة ١٣٠٠ هـ .

فى الطريق إلى المؤتمر

لم يطأ عبد الله فكرى قبل رحلته إلى المؤتمر أرضا أوربية ، وقد كان متهيبا هذه الرحلة ، حاسبا لها حسابها . وكثيرا ما اعتذر إلى القنصل السويدى راجيا منه أن يحمل غيره من المصريين هذا العبء ، ولا يرجع ذلك إلى قعود فى همة المترجم له فقد رحل قبل ذلك رحلتين إلى الحجاز والشام على صعوبة السفر وتعذر وسائل النقل ، ولكنه كان يخشى البلاد الشمالية على تقدم فى السن وضعف فى البدن . وقد صرح بذلك للقنصل . ولعل جهله باللغات الأوروبية ومروره على بلاد لا يعرف لغاتها كان من أكبر موانعه . ولكنه لم يصرح بذلك لمحدثه .

وفيم التهيب؟ وهو سيكون بين قوم وقفوا حياتهم على دراسة العربية الفصحى واجتمعوا فى تلك البلاد النائية من أجلها وفى سبيلها ؟ وفيم التهيب ومعه ولده أمين يساعده على الطريق ويعينه على التفاهم مع من تلقيهم إليه المقادير ممن لا يعرفون ذلك اللسان المبين ؟؟

اجتمع فى محطة القاهرة ثلاثة من رجال الوفد ، أما رابعهم الشيخ حمزة فتح الله فكان قد سبقهم إلى الإسكندرية ليهيئ لأسرته مقاما عند أصهاره حتى يعود من رحلته الأوروبية .

واجتمع فى المحطة كذلك جماعة من أصدقاء المسافرين ليودعوهم . وكان بين المودعين لفيف من رجال المعارف ورجال القانون . ركب الثلاثة القطار السريع من القاهرة إلى الإسكندرية ، وكانت مصر حديثة عهد بالسكك الحديدية ، فقد أنشئ أول خط فيها فى عهد عباس باشا الأول سنة ١٨٥٣ أى أن عمر السكة الحديدية فى مصر لم يتجاوز حينذاك ثلث قرن فلم لا يكون ذلك أول فصل يكتبه عبد الله فكرى فى كتابه عن الرحلة ؟

وكان فى النية أن يمضى عبد الله فكرى فى كتابة فصول الكتاب بعد أن عاد من رحلته ، ولكن المنية عاجلته ، فتولى ابنه أمين باشا فكرى إتمامه ، وظهر الكتاب باسم الولد بعد أن كان فى النية ظهوره باسم الوالد .

لقد كان ركوب البحر متعة من المتع لم يفت أمين باشا أن يدونها فى رحلته فلما وصلوا إلى (لوسرن) من بلاد سويسرة ، أراد عبد الله فكرى أن يصل ما بينه وبين مصر ، فكتب إلى صديقه على باشا مبارك كتابا مسهبا وصف فيه البحر والباخرة ، ووصف الأرض واليابسة ووصف بحيرات سويسرة ، ووصف ملاحها ، وكان يجرى فى وصفه أحيانا على طريقة السرد من غير جنوح إلى مراعاة الأسلوب الأدبى ، وأحيانا على طريقة يعنى فيها بطلاوة العبارة وكثرة السجع كقوله فى وصف عذارى سويسرة (وكم رأينا فى تلك البطاح ، من صباح الملاح ، كل خود رداح ، شاكية السلاح ، من ألحاظ كالصفاح ، مراض صحاح ، وقدود كالرماح ، دامية الجراح . فاتكة فى الأرواح ، وليس عليها لدى القانون فيما جرحت جناح ، وكل ما اجترحت مباح) .

فهذه إحدى عشرة فقرة على سجعة واحدة لم تنقطع ، وكلها فى غادات سويسرة ، وهى لشيخ بلغت سنه الخامسة والخمسين ، ومرسلة إلى شيخ زادت سنه على الخامسة والستين .

ولم يكن عبد الله فكرى غزلا فى ذلك ولا متصابيا ولكنه كان معابثا مداعبا ، فقد ختم الرسالة إلى صديقه الوزير الأديب الشيخ بأنه نظر إلى مرآة تعرض للبيع هناك . فلما رأى الشيب وخط رأسه ولاح بعارضيه نهاه المنظر ألا يستمر فى غزله ، وناداه المشيب قائلا :

هيهات ماعهد الشباب براجع يوما ولا هذا المشيب براحل

كان من خطة الوفد أن يقوم من سويسرة إلى فرنسا ، ومن هذه إلى لندن ، ومن لندن إلى هولاندة فى طريقه إلى بلاد السويد ، ولقد وقع عيد الأضحى أثناء مقامهم بباريس فى ٧ أغسطس سنة ١٨٨٩ ولم يكن مسجد باريس

قد أسس بعد ، فأين يقيمون الصلاة ، وأين يحتفلون بهذا اليوم الدينى فى أرض بعيدة لا يرتفع فيها تكبير بأذان ، ولا يدعى فيها لصلاة بقيام ؟.

لقد جعلوا من غرفة الفندق مسجدا ، ومن سرير الشيخ حمزة فتح الله منبرا ، وأحيوا العيد بالتكبير والتهليل لعل صدى أصواتهم يختلط من بعيد بأصوات المكبرين فى عرفات .

وقام الشيخ حمزة يخطب خطبة العيد وإخوانه بين يديه منصتون خاشعون . وفى الشيخ حمزة بلاغة فتن بها عبد الله فكرى فتخيله « قسا » فى عكاظ ، لولا أن هذا يخطب فى عبدة الأوثان ، وذاك يخطب فى المهتدين بهدى الإسلام وأدب القرآن ، وقد كتب الشيخ حمزة فتح الله إلى ثابت باشا رئيس الديوان (الخديوى) ينبئه بما حدث ، وكتب عبد الله فكرى باشا على هامش الكتاب يصف الشيخ الخطيب ويدعو للخديو ولنجليه الكريمين .

ولم تكن أيام الوفد فى باريس عبثا ولهوا ، ولكنها كانت للدرس والبحث ، فلم يدعوا أثرا إلا زاروه ، ولا معرضا إلا دخلوه ، وكانت الثمانية عشر يوما التى قضوها فى تلك العاصمة الجميلة مملوءة ببرنامج حافل ، وقد صادف مقامهم فى باريس مدة إقامة المعرض العالمى فشاهدوا فيه كل صغيرة وكبيرة ، وعلق على ذلك أمين باشا فكرى تعليقات تدل على اتساع الأفق وبعد النظر وحسن النية لخدمة الوطن ، فهو غير راض عن القسم المصرى فى المعرض ، وهو ساخط على ما عرض فيه من سلع لا تشرف مصر ولا ترفع لها ذكرا ، وهو راث لهذا المعرض المهجور ، بينما تعج معارض الأمم الأخرى بالغادين والرائحين .

وقد كان عبد الله فكرى عازما أن يطلع على بعض الكتب العربية فى المكتبة الأهلية بباريس ، لعله ينتسخ منها خبرا ، أو يعرف فيها أثرا ، فلم يجد القسم الشرقى فى تلك الدار على حال تعين الطالب وتسعف الراغب ،

فأسف لذلك ، ولو أنه شاهدها اليوم بعد أكثر من نصف قرن لرأى الحال غير الحال .

ونزل الأعضاء فى استكهولم وعلى رأسهم عبد الله فكرى ، ولقد رأوا فيها وجها شرقيا يحمل طربوشا فوق رأسه فإذا هو وجه أحمد افندى مدحت مندوب تركيا ورئيس تحرير جريدة « ترجمان حقيقة » ، فأنسوا به وأنس بهم بعد ما تعارف كل منهم إلى صاحبه ، ولقى عبد الله فكرى من الملك أوسكار ملك السويد كل عطف ؛ وكان المترجم بينهما ولده أمين فكرى .

وكان عليه أن يقابل رئيس الوزارة السويدية وهو فى الوقت عينه وزير الخارجية ، فكان دليله إليه الكونت « دى لاندبرج » وقد رد الوزير لرئيس وفد مصر الزيارة فى الفندق الذى كان نازلا به .

وفى المقابلة الرسمية لملك السويد ركب الوفد المصرى العربات الملكية إلى قصر الملك ، وكان يصحبهم الكونت « دى لاندبرج » وكانت آلاف من الجماهير تحييهم برفع القبعات .

وفى حضرة الملك أوسكار ، وفى ردهة الاستقبال وقف عبد الله فكرى يلقى أمام ذلك الملك الأعجمى كلمة باللغة العربية حاملا إلى جلالته تحيات الخديو ومثنيا على همته التى هيأت للمؤتمر الانعقاد فى عاصمة بلاده ، فترجمها الكونت إلى جلالته ، فرد على رئيس الوفد شاكرا حكومة مصر اشتراكها فى المؤتمر ، وشاكرا لها إهداءها ١٤١ مجلدا عربيا جلدت وذهبت على أحسن صورة .

وكان مقام عبد الله فكرى فى بلاد السويد طيبا ، فقد أجله الأمراء وأحبه العلماء ، وكان الملك يلاطفه كثيرا ، ويكثر السؤال عن صحته ، ويبالغ فى الاهتمام بأمره . ففى الحفلة التى أقامها الملك لأعضاء المؤتمر فى قصر « دروتننجهلم » . كان يصافح الأعضاء واحدا واحدا ويسأل عن أحوالهم ، ولكنه ما بلغ عبد الله فكرى حتى تلطف معه كثيرا . وسأله عن رحلته وإقامته ، وسأله رأيه فى بلاده وصاحبنا يجيب فى لسان عربى ، وولده يترجم ،

والملك فى فرح ونشوة ، لأنه استطاع أن يجمع هذه الألسنة المختلفة فى بلده يشهدون مجدها ، ويسدون إلى العلم يدا .

سوف عربية فى أرض أوربية

هناك فى مدينة استكهولم عاصمة السويد يقع قصر مشيد مبنى من طابقين ، تتوزع فى أنحائه غرف فسيحة . واسم هذا القصر « ريدارهوست » وقد كتب له أن يشهد مؤتمر المستشرقين فى السويد ، وأن يجتمع فى قاعاته بضع مئات من الوافدين يتكلمون بألسن مختلفة ، ويظهرون فى ملابس متباينة ، ويبحثون فى موضوعات تتصل بالشرق وعلومه ولغاته وفلسفاته وديانانه .

وكان المؤتمر مزيجا من أعضاء رسميين يمثلون حكومات بلادهم تمثيلا رسميا ، ومن أعضاء جامعيين أوفدتهم الجامعات الكبرى لتمثيلها فيه ، ومن أعضاء غير رسميين ، ولكنهم حضروا بصفة شخصية لفضيلة علمية فيهم أو لمزية فى البحث جعلت هيئة المؤتمر تدعوهم ولكنهم لا يمثلون حكومات بلادهم ، ومن أعضاء شرفهم ملك السويد بضيافته الخاصة كأعضاء الوفد الإيرانى ، وبعض علماء أوروبا المقربين إلى شخص الملك .

وقد كان للحكومة العثمانية مندوبان هما أحمد مدحت افندى والعالم اللغوى المشهور الشيخ محمد محمود الشنقيطى ، كما كان لكل من الحكومات الأوروبية الأخرى مندوبان من أشهر العالمين بالمسائل الشرقية المتمكنين من لغات الشرق وتاريخه .

ولم يشهد مؤتمر قبل ذلك للمستشرقين ما شهده مؤتمر استكهولم من كثرة العدد واجتماع الثقات المشهورين المشهود لهم بالعلم الواسع والبحث العميق . وقد كان لجهود ملك السويد فى ذلك فضل لا ينسى . فقد كان منى نفسه منذ مؤتمر المستشرقين فى فينا أن يجمع المؤتمر للدورة المقبلة فى بلاده ، وأبدى هذه الرغبة عنه عالم مستشرق من علماء بلاده هو الكونت « دى لاندبرج » .

وكان له فى قصور الملوك ورؤساء الحكومات مكان . فما زال يدعو للمؤتمر ويحسن الدعوة له ويجذب الأنظار اليه . ويغرى العلماء به حتى اجتمع له منهم ما يزيد على خمسمائة عالم من مختلف بقاع الأرض شرقا وغربا وطولا وعرضا

والكونت « دى لاندبرج » نفسه مستشرق من الطراز الأول . فقد جمع إلى وظائف السلك السياسى الاشتغال بالعلوم الشرقية وخاصة فى اللغة العربية التى كان يجيدها كتابة وحديثا . وكان فى الرجل حب للأدب العربى وذوق فى جمع النادر من المخطوطات العربية . ولولا نسخته الخطية ما خرجت جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى فى طبعتها الأولى بالمطبعة الأميرية سنة ١٣٠٨ هـ .

وكان فى الكونت أيضا طريقة محببة فى الاقناع والإغراء . فقد حمل المترجم له على قبول رياسة الوفد المصرى بعد تمنع وانصراف . وكانت صلاته مع كثير من المستشرقين وأساتذة الجامعات الأوروبية عاملا من عوامل نجاح المؤتمر وانعقاده على صورة أوسع من صور سوابقه .

لقد كان عبد الله فكرى فى أول الرحلة متهيبا ، ثم أخرجه أنس المشاهد الأوروبية إلى زوال الوحشة . ولكنه لم يبلغ من الأنس والألفة ما بلغه فى جلسات المؤتمر . فهنا تعرف إلى كثير من أعضائه ، وهنا وجد من كثير منهم من يحسن الكلام بالعربية ويحسن النطق بها . حتى لقد بلغ من بعضهم أن زايلته لكنة الأعاجم .

شهد المؤتمر طائفة من المستشرقين الذين يرتاح عبد الله فكرى إلى الحديث منهم والتحدث معهم ، والذين يعرفون من تاريخ العربية على طريقة علمية منظمة ما يطمئن اليه المتحدث أو السامع ، لهذا كان المؤتمر سوقا من أسواق العرب ومهرجانا شرقيا حظيت فيه العربية بأكبر نصيب . فقد تكلم قوم من الهنود والفرس والعثمانيين والصين واليابان ، ولكن المتكلمين باللسان العربى كانوا أوفر قسطا فلم يكتفوا برسائلهم التى أعدوها ولكنهم أنشدوا المؤتمرين شعرا

يختلف من حيث الجزالة والغرابة والسهولة باختلاف مزاج صاحبه وطبيعته الأدبية فقد أنشد عبد الله فكرى قصيدته التى مطلعها :

اليـوم أسفر للعلوم نهـار وبدت لشمس سمائهـا أنوار

وقـد جرى فيها على طريقته وطريقة أهل عصره من العناية بالمحسنات اللفظية ، وأنشد الشيخ حمزة فتح الله قصيدة مطلعها :

حمد السرى ياأخى العـود والناب أنسـاك وعثاء إغباب وإخباب

وقد جرى فيها على طريقته الخاصة من الإغراب فى اللفظ إغرابا عرف عن الشيخ ولازمه فيما كتب ونظم . بل لقد أسرف الشيخ فى الإغراب هذه المرة إسرافا لم يكن يدعو اليه المقام فى مؤتمر استكهولم

وعلى كل حال فقد كان ذلك المؤتمر الثامن مظاهرة طيبة للغة العربية ودعاية طيبة لمصر والمشتغلين بالآداب العربية فيها ، فقد ألقى عبد الله فكرى رسالة أسماها « عجالة البيان فى شرح ديوان حسان » ، كما ألقى رسالة أخرى عنوانها « الكلام على حال التعليم الجارى الآن بمصر فى المكاتب والمدارس والجامع الأزهر » وألقى ولده أمين فكرى رسالة عنوانها « نبذة فى أبطال رأى القائلين بتعويض اللغة العربية الصحيحة باللغة العامية فى الكتب والكتابة » وألقى الشيخ حمزة فتح الله رسالة موضوعها « الكلام على النساء فى الإسلام » وألقى محمود أفندى عمر رسالة عنوانها « أمثال المتكلمين من عوام المصريين » .

ولا أدل على الحفاوة بالعرب والعربية فى ذلك المؤتمر من أن الكونت « دى لاندبرج » المستشرق السويدى المشهور والمنظم الحقيق للمؤتمر وقف فى حفل الافتتاح الرسمى وفى حضرة ملك السويد يلقى خطبة باللغة العربية شاكرا فيها الحكومة السلطانية العثمانية وحكومة خديو مصر على اهتمامهما بالمؤتمر وإرسال مندوبين عنهما . وقد كانت الخطبة تحية خاصة للسلطان عبد الحميد الثانى والخديو توفيق كما كانت ـ على إيجازها ـ إشادة بذكر الشرق عامة والمدنية العربية الإسلامية خاصة . وقد نفى الكونت فى خطبته ما قد يتوهم من أن

للمستشرقين أغراضا خفية ومقاصد سيئة من وراء اهتمامهم بالشرقيات وأوضح أن الغرض من ذلك هو تعريف الشرق إلى الغرب تعريفا صحيحا على يد علماء مختصين وأبان أن فى تلك الدراسات طلبا للعلم ، وطلب العلم مندوب اليه قال الله تعالى « وقل رب زدنى علما » وفى الحديث الشريف « العلماء أمناء الله على خلقه » فنحن نضرع إلى الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن يصل مقاصدنا بالنجاح فهو نعم المعين(١).

وكانت خطبة « الكونت » مثالا للباقة التى عرف بها ، والتى كانت تبدو دائما لمن يتتبع خطوات المؤتمر فى المدينتين الشماليتين « استكهولم وكريستيانا »

بعض شخصيات المؤتمر

ليس من الخروج عن موضوع الحديث أن تقف وقفة قصيرة عند شخصيات المؤتمر . فمنها شخصيات أحبها عبد الله فكرى واطمأن اليها ووجد فى الحديث معها متاع نفسه مثل الأستاذ يوسف كوتوال عضو الوفد الروسى ومدير دار الكتب فى قازان وهو شيخ هم أوفى على الثمانين . ولقد وجد فيه عبد الله فكرى معرفة واسعة وحسن قيام على طبع كتب العقائد الاسلامية وتصحيحها ، كما وجد فيه حسن الاعتقاد ودماثة الخلق .

ويقول أمين فكرى عن والده عبد الله باشا فى صدد مصاحبته لهذا الشيخ « وقد صاحب سيدى الوالد هذا الشيخ وكلما طالت الصحبة راقه حديثه وأعجبه دماثة أخلاقه وظهر له حسن اعتقاده(٢).

أما بقية البارزين من أعضاء المؤتمر فقد تعرف إليهم المترجم له ، وكان يناقشهم فى مسائل ، ويسألهم عن مخطوطات نادرة وصلت إلى أيديهم ، وكان

---

(١) من خطبة الكونت دى لاندبرج — انظر إرشاد الألبا ص ٦٣٦ .
(٢) إرشاد الالبا ص ٦٠٩

يحادث الذين يعرفون العربية منهم باللسان العربى . أما المستشرقون المختصون بغير اللسان العربى فكان يقوم بدور الترجمة بينه وبينهم ولده « أمين فكرى » الذى كان يجيد الفرنسية كتابة وحديثاً .

ومن هؤلاء المستشرقين المسيو « شفر » رئيس مدرسة الألسن الشرقية بباريس، والبارون «دى كريمر» النمسوى، والأستاذ « مكس موللر » من أساتذة جامعة اكسفورد، والأستاذ «دى جويه» المستشرق المشهور، والأستاذ «ليتنر» رئيس مدرسة اللغات الشرقية فى لاهور بالهند سابقاً ورئيس مدرسة اللغات الشرقية بلندن وقت انعقاد المؤتمر، والأستاذ « جولدتزيهر » المستشرق المجرى المشهور، وكان أفصح المتكلمين باللسان العربى ؛ ولقب بالأزهرى لأنه تلقى العلوم العربية عن علماء الجامع الأزهر [1] ، والأستاذ « أوجست موللر » المدرس بمدرسة اللغات الشرقية بكونجسبرج من أعمال ألمانيا .

ولقد كان « عبدالله فكرى » وبقية أعضاء الوفد المصرى ـ فى أول الأمر ـ غرباء الوجوه والهيئة فى ذلك المؤتمر ، ولولا التقاؤهم بمستشرقين يعرفون العربية لكانوا غرباء اللسان أيضا ، لولا أن « أمين فكرى » كان يسهل عليهم التفاهم فى كل بلد أوروبى نزلوا فيه ، وفى الحق أنه كان دليلهم . وما أشد فرحهم حين وقعت أنظارهم فى بهو المؤتمر على شيخ طويل القامة ملىء الجسم كثيف اللحية أسودها وعلى رأسه طربوش ، فحدقوا بأنظارهم إليه وحدق بأنظاره إليهم . ثم تقدموا إلى السلام عليه من غير معرفة سابقة ، فاذا هو أحمد مدحت أفندى مندوب السلطان العثمانى ورئيس تحرير جريدة « ترجمان حقيقت » ومن المؤلفين الأتراك ، فأعادوا المصافحة من جديد لتوكيد الصحبة وتمكين الألفة وأخذوا بينهم بأطراف الأحاديث . . .

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٩٤ .

رسالتا عبد الله فكرى فى المؤتمر

قدم عبد الله فكرى إلى المؤتمر رسالتين أولاهما : شرح أول قصيدة من ديوان حسان ، والثانية : أمر التعليم الجارى بمصر فى المدارس الأميرية والمكاتب الأهلية والمدارس الدينية .

وكانت بلاد السويد والنرويج فى ذلك الحين مملكة واحدة يحكمها ملك واحد هو الملك « أوسكار الثانى » الذى يقيم دائما فى « استكهلم » عاصمة السويد وينوب عنه أحد أولاده فى الإقامة بكرستيانيا عاصمة النرويج .

لهذا رئى أن تكون جلسات المؤتمر مقسمة بين العاصمتين إشعاراً بوحدة البلدين ، فأقيمت بعض الجلسات فى عاصمة السويد وأقيمت بقيتها فى عاصمة النرويج ، ولذا تقرر أن يقدم عبد الله فكرى رسالته « شرح قصيدة حسان » فى عاصمة السويد ، ورسالته الثانية عن التعليم فى مصر فى عاصمة النرويج .

أما الرسالة الأولى فقد قدمت إلى المؤتمر فى اليوم الثانى من جلساته ، ولم يشهدها أعضاء المؤتمر جميعاً ولكن شهدها أعضاء القسم المختص بلغات أهل الإسلام وآدابهم ، فقد كان من نظام المؤتمر أن ينقسم إلى خمسة أقسام :

(١) قسم الألسنة الإسلامية والسامية ، ويدخل فيه اللسان العربى وبقية الألسنة السامية .

(٢) قسم الألسنة الآرية .

(٣) قسم الألسنة الأفريقية ، ومنها اللسان المصرى القديم .

(٤) قسم آسيا الوسطى وبلاد الشرق الأقصى .

(٥) قسم ماليزيا وبولينزيا .

وكان لكل قسم مكانه فى المؤتمر ورئيسه الخاص وكاتم سره ، وفى القسم الأول كان وفدنا المصرى .

لم يتل عبد الله فكرى رسالته الأولى على الأعضاء ، فقد اتفقوا فيما بينهم اختصاراً للوقت أن يكتفى العضو بتقديم رسالته مكتوبة إلى لجنة المؤتمر ليطلع عليها من أراد ، ثم تطبع بعد ذلك فى كتاب خاص يضم أعمال المؤتمر وماقدم إليه من أبحاث ، على أنه يجوز للعضو أن يقدم بين يدى رسالته بكلمة يلقيها على الأعضاء يوجز فيها رسالته إيجازاً يدل على الغرض منها والخطة التى انتهجها والقيمة العملية لها ، وكذلك فعل عبدالله فكرى فقد وقف فى جمع من الرجال والنساء يبلغ مائة وخمسين وألقى عليهم مقدمة صغيرة بين الغرض فيها من شرح القصيدة الأولى من ديوان حسان ، وأبان أن القصيدة الواحدة من كلام الشعراء قد يفردها شارح أو أكثر بالتأليف والتصنيف كما فعل «بلامية العرب» للشنفرى وقصيدة « بانت سعاد » التى نظمها كعب بن زهير فى مدح الرسول ، فمن شرح القصيدة الأولى محمد بن عمر الزمخشرى [1] . ومن شرح القصيدة الثانية ابن دريد والتبريزى [2] .

وقد يقول قائل : إن شرح قصيدة عربية ليس عملا يستحق التقديم إلى مؤتمر المستشرقين ، وقد يكون الأولى بذلك كتاب يطبع على سبيل التأليف لا عمل يقدم على سبيل البحث ، وكأنما فطن عبد الله فكرى إلى مثل هذا الاعتراض ، فمهد لنفسه العذر فى المقدمة التى ألقاها ذاكراً أنه جعل الشرح ليكون جامعاً بين اللغة والتاريخ والرواية مضافا إلى مايستفاد من أصل المتن وسياق الكلام من أخلاق العرب وعاداتهم وطباعهم ، ومايمدح ويذم ويحب ويكره عندهم .

ولقد أضاف إلى الشرح تحقيقاً علميا للديوان على قدر ما كان يسمح به عصره ، فقد عثر على نسخ متعددة من شعر حسان فى مصر والقسطنطينية

---

(١) فى عنوان نسخة الجوائب أنه محمد بن عمر وفى المتن ص ١٠ أنه محمود بن عمر وهو الصواب .

(٢) جورجى زيدان جزء ١ ص ١٥١ — والتبريزى هذا غير شارح المعلقات المشهور ، وغير التبريزى العمرى من علماء القرن الثامن .

وغيرهما . وبين النسخ اختلاف فى الروايات ، ومنها نسخة برواية أبى عبد الله العدوى مكتوبة فى سنة ٤١٩ هـ ، وهى منقولة من نسخة قرئت عليه سنة ٢٥٥ هـ ، فاجتمع لعبد الله فكرى بعد المقابلة والتحقيق نسخة من ديوان حسان « كانت بقدر الإمكان أصح وأجمع مارأيت من نسخ الديوان »[1] .

وقد كان فى نية « عبد الله فكرى » أن يجرى فى شرح ديوان حسان ابن ثابت كله على الغاية ، فلايكتفى منه بشرح قصيدة واحدة ، وقد أشار هو نفسه فى الكلمة التى ألقاها بالمؤتمر إلى النية فى ذلك قائلا : « فإن اتسع الوقت والأجل لبلوغ الأمل بإتمام هذا العمل سلكت فى سائر الشرح على النسق الذى نسقته فى الأنموذج الذى نمقته ، وإلا صح أن يكون شرحاً مستقلا للقصيدة المذكورة » .

ولكن الأجل لم يفسح له فى رغبته ، ولم يطل فى مدته ، فما كاد يصل إلى الإسكندرية فى سبتمبر سنة ١٨٨٩ حتى عرضت له من أمور الدنيا أشغال تبعها اعتلال ، إلا أنه بعد العافية استمر على المطالعة والتردد إلى كتبه ماضياً فى سبيله ، عاملا على إنجاز أمنيته ، ولكن المرض عاوده فمات فى أواخر يوليو سنة ١٨٩٠ أى بعد أشهر معدودة من عودته من المؤتمر .

وإذا كان الزمان لم ينجز أمنيته فى شرح ديوان حسان كاملا فقد كان فى شرح القصيدة الأولى منه وتقديمها إلى المؤتمر ماشفى حاجة فى نفسه ، فقد رأى القصائد المفردة تفرد بالشرح كما سبقت الإشارة ، فلم لاتكون قصيدة حسان بن ثابت الهمزية مشروحة شرحاً مستقلا ، كما شرحت قبلها قصائد مفردة للشنفرى ولكعب بن زهير ، وللطغرائى ولابن الوردى ؟ .

ويظهر أن شرح القصائد الطوال كان عملا حبيباً إلى نفس عبدالله فكرى ، ولو فسح له فى الأجل فقد يكون من المحتمل أن يشرح بعض المطولات من

---

(١) الآثار الفكرية ص ٣٣٣ وارشاد الألبا ص ٦٥٨

« القصيد العربى القديم » وقد شرح بالفعل بديعية للشاعر المصرى المعاصر له محمود صفوت الساعاتى ، كما كتب بعض تعليقات على منظومة لأحمد خيرى باشا فى الحكم والأمثال .

وهو بذلك لم يخرج عن طبيعة عصره أيضا ولا العصر الذى كان قبله فقد كان شرح القصائد المطولة أمراً منتشراً بين الأدباء فى العصر التركى .

وليس معنى ذلك أن شرح القصائد المفردة كان من وحى العصر التركى ، فقد كان العصر المملوكى حافلا كذلك بشروح القصائد ، ولعل أول قصيدة شرحت شرحاً مفرداً هى قصيدة « لامية العرب » للشنفرى ، فقد شرحها المبرد من علماء القرن الثالث الهجرى ، ثم جاء بعده الزمخشرى فى القرنين الخامس والسادس فشرحها شرحا مطولا طبع فى مطبعة الجوائب .

ومن هذا يتبين أن فكرة شرح القصيدة المفردة ترجع إلى القرن الثالث ولكن الإكثار من الشروح لم يزد إلا فى العصور المتأخرة ، فقد شرح محمد أمير حاج قصيدة أبى فراس الحمدانى [١] التى امتدح بها آل البيت ، ومطلعها :

* الحق مهتضم والدين مختزم *

وشرح الشيخ المناوى القاهرى من علماء القرنين العاشر والحادى عشر الهجرى قصيدة ابن سينا فى النفس [٢] التى مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وشرح ابن حجر المكى من علماء القرن العاشر الهجرى قصيدة البردة للبوصيرى [٣] ـ وهو غير ابن حجر العسقلانى صاحب الدرر الكامنة ، والاصابة فى تمييز الصحابة ، وشرح ابن عمر الهندى من علماء القرن التاسع قصيدة « بانت

---

(١) طبع ببلاد العجم .
(٢) الشرح مطبوع بالموسوعات سنة ١٣١٨ هـ فى ١١٩ صفحة .
(٣) طبع بالمطبعة الميمنية سنة ١٣٠٧ هـ فى ١٦٨ صفحة .

سعاد » لكعب بن زهير كما شرحها قبله ابن هشام الأنصارى النحوى من علماء القرن الثامن . وشرح صلاح الدين الصفدى من أدباء القرن الثامن قصيدة الطغرائى المعروفة بلامية العجم .

ولم يخرج عبد الله فكرى عن طريقة الشراح للقصائد . فهو يتناول البيت كلمة كلمة . ويرد كل كلمة إلى أصلها واشتقاقها ويذكر وجوه استعمالها . مستشهدا على ذلك بالبيت من الشعر أو المثل أو الحديث أو الآية من القرآن ، ثم يذكر الأوجه المحتملة فى الإعراب وما يتبع ذلك من تغيير فى المعنى ، وقد يعرض لأوجه الخلاف بين البصريين والكوفيين ، وقد يدفع اعتراضا يقدم أو وهما يتوهم . وقد يرد البيت إلى موضعه من شواهد النحو والبلاغة . وقد يروى حادثة تتعلق بالبيت أو تتصل به ولو من بعيد .

ودليلنا على ذلك شرحه لبيت حسان الآتى :

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

فقد ذكر الروايات المختلفة فيه مابين « سبيئة » و« خبيئة » و « سلافة » . وفسر «السبيئة» على أولى الروايات ، والخبيئة والسلافة على الروايتين الأخريين ، وفسر « بيت رأس » وهل هى اسم مكان أم رأس بمعنى رئيس . ورجح التفسير الثانى ذاهبا مذهب اللخمى ، لأن أحسن الخمر ما يشرب فى بيوت الرؤساء ، لأنهم يشربونها ممزوجة كراهة أن تخرجهم من عقولهم . واستشهد عبد الله فكرى على ذلك بقول عدى بن زيد .

رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال

كما استشهد ببيت آخر تعيب فيه أخت جذيمة الأبرش أخاها لأمر لحقها منه بسبب شربه الخمر صرفا ، وتقول فيه :

ذاك من شربك المدامة صرفا وتماديك فى الصبا والمجون

ثم انتقل إلى الروايات المختلفة فى قول حسان :

يكون مزاجها عسل وماء

وبين أوجه إعرابها وموضع « يكون » من الكلام ، وأطال فى ذلك التخريج والتأويل إطالة جعلت الشرح نحويا لا أدبيا .

ولعبد الله فكرى فى ذلك ألف عذر وعذر ، فكتب الشروح كلها على هذا الغرار ، حتى الزمخشرى نفسه وهو يشرح لامية العرب للشنفرى ، فقد أوغل فى التصريف إيغالا خرج بالشرح عن غايته ؛ فلما بدأ يشرح مطلع القصيدة :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل

أخذ يذكر أن أصل أقيموا أقوموا ثم نقلت كسرة الواو إلى القاف ثم قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها[1] .

وهذا سبيل عجيب فى شرح الشعر ، ولعل الزمخشرى كان على حق حينما سمى كتابه هذا « أعجب العجب » ! ! .

ولكن رسالة عبد الله فكرى على كل حال ، لاتخلو من علم غزير وإحاطة بتاريخ العرب ، وإدراك تام للغة ونحوها وصرفها . كما تدل على اطلاع واسع على المراجع التى ذكرها فى سياق شرحه ، وهو اطلاع كان بلا شك عاملا على التكوين الأدبى لعبد الله فكرى ، مضافا إلى حسن استعداده وملكته الأدبية .

ولم يطبع شرح همزية حسان بن ثابت طبعا مستقلا بذاته ، ولكنه نشر فى المجموعة المسماة « بالآثار الفكرية » التى جمعت أكثر ما نظم وما كتب ، واستغرق من صفحات الكتاب ثلاثا وستين صفحة .

* * *

(١) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى طبع الجوائب بالقسطنطينية ص ١١

أما الرسالة الثانية التى قدمت إلى لجنة المؤتمر فى كريستيانيا فكانت حول نظام التعليم فى مصر على مختلف درجاته وأنواعه فى عصر توفيق وهى رسالة لها من القيمة التاريخية ما يجعلها مصدرا عن التعليم فى مصر فى ذلك العصر. ولا شك أن اتصال عبد الله فكرى بوزارة المعارف مدة من الزمن قد أتاح له أن يكون مرجعا موثوقا به عن حالة التعليم وتدرجه فى عصر النهضة الحديثة. ولو أنها طبعت لأضافت إلى معلوماتنا عن عهد توفيق شيئا كثيرا، ولكنها مطوية الآن فى أعمال المؤتمر التى تحتفظ بها حكومتا اسكانديناوة، ومن يدرى مصائرها بعد هذه الحرب التى بعثرت نفائس القصور ومكنونات الدور.

ومن سوء الحظ أن هذه الرسالة لم تنشر فى مجموعة الآثار الفكرية كما نشرت أختها السابقة، ولم تطبع فى كتاب مستقل كما يجب أن يكون، ولكن أشار إليها أمين فكرى باشا — نجل الفقيد — فى كتابه « إرشاد الألبا »، ونشر المقدمة التى تلاها والده على الأعضاء تمهداً للرسالة التى أودعها مكتب المؤتمر فكان إيداعا إلى وداع.

والواقع أن معلوماتنا عن التعليم فى عصر توفيق مبعثرة وخاصة فى كتب التاريخ التى كتبها الأجانب، لولا الكتاب الذى أخرجه أمين سامى باشا بعنوان « التعليم فى مصر » ففيه فصل عن التعليم فى عصر توفيق، ولكنه يعتمد على الجداول والإحصاء أكثر مما يعتمد على البحث والدرس إلا أن قيمته العلمية لا تنكر لمن يريد أن يتخذ منه مرجعا لخطط الدراسة والمدارس الجديدة، وترتيب درجات الموظفين والمدرسين بوزارة المعارف وعدد المتخرجين فى المدارس، وإحصاء تلاميذ مدارس الحكومة تفصيلا وإجمالا.

أما رسالة عبد الله فكرى فيلوح من مقدمتها المنشورة أنها تضيف إلى الجداول والإحصاءات أبحاثا عن درجات التعليم فى مصر. ففيها فصول عن تقسيم المدارس والمكاتب الابتدائية بدرجاتها الثلاث، وعن المدارس الثانوية « التجهيزية » والمدرسة الطبية، ومدرسة الهندسة، ومدرسة الحقوق، ومدرسة

دار العلوم ، ومدرستى التوفيقية والخديوية التجهيزيتين ، ومدرسة الفنون والصنائع ، ومدرسة العميان والخرس ، ومدرسة البنات ، والمدارس الحربية والأزهر ، ويتبع الكلام عن كل مدرسة بيان مصروفاتها ، والنقود المتحصلة من التلاميذ وعدد التلاميذ الحالى وموازنته بالسنوات التى قبله ، وبيان عن التعليم فى القاهرة . وبيان عن المدارس الموجودة فى المساجد ، وبيانات عن الأزهر والمرتب له من الجراية كل يوم ، ومرتبات العلماء ، وقانون امتحان المدرسين بالأزهر ، وبيان بالمدارس الحرة التابعة لجمعيات خيرية أو جماعات دينية وإحصاء تلاميذها .

ولو طبع هذا الأثر أو خرج من أضابير ذلك المؤتمر لكان أوفى وأصدق مرجع عن التعليم فى عصر توفيق . ولكن مصيره مطوى مخبوء فلعل باحثا فاضلا يرشد إليه ، أو لعل الحكومة المصرية تضع أصبعها على مكانه فتستعيره لتطبعه لما فى ذلك من فائدتين : الأولى نشر معلومات صحيحة عن حالة التعليم فى مصر فى عهد أمير من أمرائها . والثانية إحياء ذكرى رجل اشترك فى عصر النهضة أديبا كبيرا وموظفا مسئولا بالمعارف فوزيراً لها .

على أن الأمل فى العثور على نسخة أخرى من هذه الرسالة لايزال يعاودنا . فإن عبد الله فكرى قدم نسخة منها إلى لجنة الرسائل ، واحتفظ لنفسه بنسخة أخرى . كما أشار هو نفسه إلى ذلك فى رسالته التى أرسلها من أوروبا إلى دولة رياض باشا رئيس الوزارة المصرية يصف له الرحلة إلى المؤتمر والاشتراك فيه والانتهاء منه . ويقول فى معرض الحديث عن جلسات المؤتمر « وفى أثناء انعقاد جلسات فصوله المذكورة قدم منى ومن جميع رفاقى ما أردنا تقديمه مما أعددناه لذلك وقوبل ما عرض من كل واحد منا بالاستحسان والاعتبار . وقد أبقى كل واحد منا عنده نسخة مما عرضه بعد تقديم نسخته[1] » .

---

(١) الوقائع المصرية عدد ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٩ والآثار الفكرية ص ٢٥٥ .

رحلة شرقية :

كانت رحلة المؤتمر هى الرحلة الغربية التى قام بها عبد الله فكرى فى حياته وقد استغرقت تسعة وستين يوما — من ١٣ يوليو سنة ١٨٨٩ إلى ٢٥ سبتمبر من السنة نفسها — .

ولكن أعضاء الوفد المصرى وعلى رأسهم عبد الله فكرى استطاعوا أن يروا من أوروبا فى خلال هذه الرحلة القصيرة ما لا يتاح لزائر عابر .

ولقد أثبت كتاب « إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا » الذى ألفه أمين فكرى باشا ولد الفقيد أن النية إذا صحت على الاستفادة وأن العزم إذا انعقد على الدرس بالمشاهدة فليس بمانع من ذلك قصر الرحلة ولا ضيق الوقت .

فلم يترك أثرا من آثار البلاد التى نزلوها إلا زاروه زيارة الدارس الباحث لا زيارة المشاهد العابر . ولم يدعوا مصنعا ولا متحفا ولا مدرسة ولا كنيسة ولا أثرا إلا وقفوا عنده وعرفوا الكثير عنه . ولم يدعوا معرض باريس — وكان قائما فى ذلك العام — إلا جاسوا خلاله ودخلوا أقسامه ودرسوا تفاصيله حتى برج إيفل ، فقد صعدوا إلى قمته ، وكان البرج فى ذلك الوقت حديث الدنيا ومشغلة الألسن لقرب العهد بإنشائه فى سنة ١٨٨٨ .

والحق أن عبد الله فكرى قد كسب من تلك الرحلة مكسبا كان يرجى أن يكون له أثره فى كتاباته . فإن وحى المؤتمر ووحى أوربا وإلهام هذه الأرض الجديدة عليه لم يكن ليضيع عبثا أو يذهب مع الرياح لو أن الموت أمهله . ولكنه مات بعد بضعة أشهر قبل أن تفعل رحلة أوروبا فى نفسه فعلها ، أو على الأصح قبل أن تنتج أثرها أو تؤتى ثمرها .

وإذا كانت هذه هى الرحلة الأوروبية لعبد الله فكرى فقد سبقتها قبل ذلك رحلات إلى بلاد شرقية جمعتها بمصر أواصر من الجوار كالشام ، أو من صلات الشعائر الدينية كالحجاز أو من روابط السياسة كتركيا .

أما الرحلة إلى تركيا فكانت مع الخديو إسماعيل حينما سافر إلى القسطنطينية سنة ١٨٦٣ لاستكمال الرسوم فى تقليد الولاية وأداء الشكر للحضرة السلطانية[١] كما يقول كاتب بمجلة « المقتطف » أوليقدم للسلطان عبد العزيز فروض الولاء، وانتهز هذه الزيارة لإحكام روابط الود بينه وبين تركيا كما يقول عبد الرحمن الرافعى بك[٢].

ومهما كانت أغراض إسماعيل من تلك الزيارة فقد عاد منها عبد الله فكرى مرضيا عنه من أميره، موصول العمل فى خدمته، موضعا للثقة فيه وحسن الظن به فسافر معه غير مرة إلى تركيا بعد ذلك، كما سافر فى صحبة الحرم الخديوى، أو وحيدا للسفارة عن مولاه فيما كان بين مصر وتركيا من أمور فى ذلك الحين.

ولقد كان الخديو إسماعيل كثير التودد إلى السلطان عبد العزيز فى أوائل ولايته، فلعل سفارة عبد الله فكرى إلى تركيا كانت بسبيل ذلك ولم يشر إلى تلك السفارات أو « المأموريات » إلا كاتب واحد من أولاد الفقيد كتب سيرته فى « المقتطف » بعد شهرين من وفاته ولم يذكر اسمه.

على أن هناك رحلة أخرى إلى تركيا قام بها المترجم له فى صحبة مولاه، فقد سافر إسماعيل إلى القسطنطينية وتوجه إلى دار الخلافة لأداء الشكر للسلطان عبد العزيز على ترقيته إلى رتبة الوزارة والمشيرية. فكان عبد الله فكرى واحداً من بطانته التى صحبها معه.

أما رحلة الخديو إسماعيل إلى الأستانة فى صيف سنة ١٨٧٢ لتحسين علاقته بتركيا بعد فرمان سنة ١٨٦٩ الذى كان صدمة لآماله فلم تشر المراجع التى بين أيدينا إلى اشتراك عبد الله فكرى فيها، فقد صحب الخديو فيها إلى الأستانة إسماعيل صديق باشا وزير المالية ونوبار باشا وزير الخارجية.

---

(١) المقتطف المجلد الخامس عشر ص ١٠ سنة ١٨٩١.

(٢) عصر إسماعيل ج ١ ص ٧٨.

وكذلك رحلة إسماعيل إلى الأستانة سنة ١٨٧٣ وهى الرحلة التى قصد منها إلى الحصول على فرمان جامع للمزايا التى نالتها مصر منذ عهد محمد على إلى عهده ، فإن المراجع التاريخية لاتذكر اسم عبد الله فكرى فيها على حين تذكر أسماء نوبار وإسماعيل صديق ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء فى ذلك الحين .

ولعل السبب فى عدم مصاحبته للخديو إسماعيل فى رحلتى ١٨٧٢ و١٨٧٣ إلى الأستانة أنه كان فى ذلك الحين وكيلا لديوان المكاتب الأهلية . فكان بحكم عمله بعيداً عن خدمة الديوان الخديوى أو « المعية » . أما فى رحلاته السابقة فكان موظفا « بالمعية » ، وطبيعة العمل فيها أن يندب — متى شاء مولاه — ليكون معه فى أسفاره .

أما رحلته إلى الحجاز فكانت فى سنة ١٣٠٢ هـ — ١٨٨٤ م ولم تكن كرحلاته إلى تركيا لسفارة ، أومصاحبة للخديو ، أولعمل سياسى من الأعمال الكثيرة التى كان إسماعيل يجد فى الباب العالى حلا لها ، ولكنها كانت لأداء فريضة الحج ، زلفى إلى الله وبعداً من الناس وعزوفاً — ولو إلى حين — عن مشاغل الدنيا .

ولقد أخذ نفسه — جهد طاقته — فى هذه الرحلة بإيثار التنكر على الاشتهار ، والبعد عن المخالطة واللقاء ، حتى يكون خاطره مصروفاً إلى ربه ، فلايشغل بمجلس ، ولايؤخذ بمحفل ، وبهذا يتحقق الغرض من أداء الفريضة وإقامة الشعيرة فى جوهادئ ، لايلهيه جلال المظاهر ، وضجيج المجامع ، وقد أشار إلى ذلك فى رحلته المكية ، وهى الرسالة التى كتبها إلى الشيخ عبد المجيد الخانى شيخ علماء دمشق فى وقته ، ومنها هذه السطور :

« لأنى حين عقدت نطاق النية على تيمم هـــذه المواطن السنية ، وقع فى القلب أن الأجدر بها إيثار شعار الخمول والاستتار ، واطراح دثار التظاهر والاشتهار ، فتجنبت معتادى فى هيئة الملابس ، وتنكبت عن غشيان المحافل والمجالس ، طلباً لحضور القلب واجتماع الخاطر ، وهرباً من الدخول تحت نير

العادات والمظاهر... وأنا أجد ذلك أرفق وأوفق وأحرى براحة السر، وأخلق وأقرب إلى حضرة الحق، وأبعد عن كثرة الاختلاط بالخلق، حتى أنى لم أتخذ على العادة مدعياً ولا دليلا، خيفة أن يكون ذلك للظهور والشهرة سبيلا».

ولم يكن فى عبد الله فكرى الاستتار والعزوف فى كل المواطن، ولكنه رأى بفطرته الدينية السليمة أن العزوف فى مواطن الحج والزيارة أليق، ولو أراد أن يظهر نفسه، أو يشهر اسمه هناك لفعل، فقد كان سبيل ذلك ميسورا لديه، وأسبابه مجتمعة عنده، فهو وزير سابق، وهو من رجالات مصر المعروفين فى وقته، وهو فوق ذلك أديب بطبعه، ألوف بفطرته، يحب المجامع، ويزور المجالس، ويعقد الصداقات مع العلماء والأدباء فى يسر تسهله فطرته السمحة وخلقه الرضى، ولكنه على الرغم من ذلك كله آثر العزلة، وفضل الانزواء حتى لم يدر به فى تلك البلاد المقدسة والد صديقه الشيخ عبد المجيد الخانى، ولم يدر هو به، وما عرفا أنهما جمعهما موسم واحد وموقف واحد فى عرفات إلا بعد انفضاض الصحب، وعودة الركب، ورحلة القوافل، والقرار بالأوطان والمنازل.

ولما ذهب إلى المدينة لزيارة النبى عليه السلام، رأى أن يقيم فيها أياما، وكان على خطته من الانزواء والاستتار، فاستأجر دارا قريبة من المسجد الشريف، وأقام فيها على صمت وعزلة، ولم يشأ أن يعلن بوجوده إلا قرب ارتحاله، ولكن أمر مقامه مازال يتعالم ويشتهر حتى وفد إليه المحبون والمسلمون فاضطروه إلى الخروج من عزلته، والانسلاخ من صمته وخلوته، فكانت تدور بينه وبينهم الأحاديث فى المجالس، ولاشك أنهم وجدوا من ذلك الوافد المصرى فضلا نم عليه، فوثقوا منه بالعيان بعد أن سمعوه بالآذان.

كانت رحلته إلى مكة والمدينة قبل رحلته إلى الشام بعام واحد، وكان فى دمشق صديق عرفه بالمكاتبة والمراسلة، هو الشيخ عبد المجيد الخانى من أجلاء علماء دمشق ونجل السيد محمد الخانى من سادة الشام وأهل الفضل فيها.

وكان الشيخ عبد المجيد أديبا وعالما بالفقه ، وكان مع كثير من أدباء مصر على ود موصول ، فهو يراسلهم ويداعبهم ويقرأ أخبارهم فى « الوقائع المصرية » و « روضة المدارس » ويدخل معهم فى مناظرات أدبية ، جعلته بينهم معروفا ، وإليهم مقربا .

فلما كانت الثورة العرابية وانتهت بعد فشلها بمحاكمة العرابيين ، نفى بعضهم إلى بيروت ، وكان منهم الشيخ محمد عبده ، فعرفوا الشيخ عبد المجيد وأحبوه واطمأنوا إليه ، وانعقد بينهم من أواصر الصحبة مابقى بعد عودتهم إلى وطنهم ، حتى إن الأستاذ الإمام ظل يكاتبه ويداعبه ويرد على رسائله ، وفى الجزء الثانى من تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا رسالتان من الإمام إلى ذلك العالم الدمشقى الأديب الخفيف الظل المعسول الفكاهة ، ولكن صلة عبدالله فكرى بالشيخ عبد المجيد كانت قبل الثورة العرابية بخمس سنين .

وبيان ذلك أن عبد الله فكرى كان من عادته أن يصنع ألغازاً وينشرها فى إحدى المجلات أو الصحف القائمة فى عهده منتظراً من الأدباء حلها ، وكانت تلك الألغاز تقابل من الأدباء باهتمام كبير ، فهم يحاولون حلها ويتجادلون حولها ، وخاصة إذا كانت صعبة الحل أو متعددة الوجوه .

ففى سنة ١٨٦٣ نشرت مجلة « الجوائب » لغزاً بتوقيع عبد الله فكرى ، فانبرى الأدباء فى ذلك الحين لحله ويظهر أنهم لم يظفروا بطائل ، وما زالت السنون تتوالى حتى انسلخ من عمر الدهر خمسة عشر عاما ، وإذا باللغز يصادف عند الشيخ عبدالمجيد حلا ، وإذا الشيخ فرح طروب لأنه عثر على ضالة طالما نشدها ، وخاصة أن أدباء دمشق كانوا أكثرتهالكا على حل الألغاز والأحاجى من أهل مصر .

ولما أعلن الشيخ بحله فى ندوة من أصحابه وجماعة من رواد مجلسه صدقه بعضهم وكذبه بعضهم ، وحلف المكذب إن عبد الله فكرى ماقصد ذلك

الحل ولاذهب إليه ، فخلف الشيخ عبد المجيد الخانى إن ذلك هو الحل ولاحل غيره ، وأنه هو الذى يرمى إليه صاحب اللغز . . .

وأمسك الشيخ قلمه وأفرغ عليه شعاب فكره ، وأرسل إلى عبدالله فكرى — على غير معرفة سابقة — يخبره بما حدث متلطفا فى السؤال ، مفتنا فى المقال متوسلا إليه أن لايفعل فى الإهمال مثل فلان « المصرى » الذى زاره الشيخ بمصر من عهد قريب لمكان فضله وموضع سيادته وأصله . . . فازور « فلان » هذا إعراضا عن الضيف الغريب ، فأسرها الشيخ فى نفسه ، وجعلها حديثا للتندر .

والحق أن الشيخ كان بارعا ، فقد ساق هذه الحادثة إلى عبد الله فكرى حتى تكون له زاجراً لوحدثته نفسه بإهمال الجواب وإغفال رد الكتاب .

ولكن عبدالله فكرى كان أبرع وأكثر تلطفا ، فقد رد على الشيخ برسالة أدبية لطيفة وفيها تأكيد لمودة مرجوة ومحبة موصولة . . .

اتصلت المراسلة بين الرجلين على غير لقاء مدة خمس سنوات حتى جاءت الثورة العرابية ، واكتوى عبد الله فكرى ببعض نارها ، فآثر بعدها أن يروح عن قلبه بزيارة دينية ، وأن يتبعها فى العام التالى بزيارة إلى الشام فله فيها أصدقاء الروح وأخلاء الفكر الذين كانوا يقرءونه ويسمعون أخباره ، وله فيها صديق دائم الود ثابت العهد هو الشيخ عبدالمجيد الذى ظل يكاتبه والثورة قائمة ، وظل يكاتبه والثورة قد تمخضت عن حبس واعتقال ونفى وتشريد ووعد ووعيد .

وكان يخاطبه أول الأمر بسيدى الأستاذ ، فلما استحكمت المودة وانعقد الإخاء صار يخاطبه بالأخ الوفى ، وهى منزلة كان يستحقها هذا الشيخ الذى وجد منه المنفيون فى بيروت بسبب الثورة العرابية حسن الجوار وأنس اللقاء ومحض الإخاء .

نعم لقد أحبه المنفيون المصريون فى بيروت ، ووجدوا فيه على اختلاف ألوانهم أدبا وفضلا وعلما وخلقا . كما وجدوا فيه فكاهة ومرحا ، وظلوا يكاتبونه

بعد عودتهم ، وكان أكثرهم على ذلك مداومة وحفاظا الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى .

أما عبد الله فكرى فلم ينف فى المحاكمة العرابية إلى بيروت ولا إلى غير بيروت من أمثال سواكن ومصوع والأستانة وغزة ومكة ، وهى مواطن النفى القريب ، ولكن اسمه دائما كان فى الشام يذكره المنفيون ويذكره الشيخ عبد المجيد الخانى حينما تدور بينهم الأحاديث . فإذا هم يعلمون أن عبد الله فكرى صديق للشيخ قبلهم وأن عددا من الرسائل فى بضع من السنوات قد أحكمت بين الرجلين وألفت بين القلبين ، على بعد المزار .

والواقع أن نفى بعض العرابيين إلى بيروت قد خلق فى الشام كله حركة علمية أدبية ، وقد كان بيت محمد عبده هناك يغص كل ليلة بالزائرين ، يسمرون فى كل حديث ، ويناقشون فى كل مسألة ، ويروون من الشعر ما طاب ومن النثر ماعذب ، وكان من هؤلاء المنفيين أدباء علماء مثل الشيخ أحمد عبدالجواد القاياتى والشيخ محمد عبد الجواد القاياتى وإبراهيم اللقانى ومحمد الصدر المحامى وأحمد رفعت ناظر قلم المطبوعات . كما كان منهم ضباط أحبوا تلك المجالس العلمية الأدبية ووجدوا فيها عوضا من إدارة المعارك وخوض المعامع أمثال الأمير الاى مصطفى عبد الرحيم بك والقائمقام أحمد عبد الغفار بك .

وكان يتردد على تلك المجالس الأدبية رجال من أهل الشام كالشيخ عبد القادر القبانى صاحب جريدة « ثمرات الفنون » والشيخ عبد المجيد الخانى عالم دمشق وصديق عبد الله فكرى الروحى والشيخ محمد اللبابيدى والشيخ حسين الجسر الطرابلسى والشيخ محمد المنينى مفتى الشام وكثير من أدباء المسيحيين أمثال الشيخ سعيد الشرتونى صاحب معجم « أقرب الموارد » والشيخ ابراهيم اليازجى العالم اللغوى .

وفى هذه المجالس والندوات كانت تعرض أسماء الأدباء والشعراء من القدماء

والمحدثين فكان لكل جالس رأى ولكل سامر ميل ، ولكن الإجماع كاد ينعقد على أن عبد الله فكرى شاعر ناثر ، وأكد الشيخ محمد عبده هذا الإجماع برأيه فى أخلاق عبد الله فكرى وقوة دينه .

وكان سرور الشيخ عبد المجيد الخانى لهذا الإجماع على فضل عبد الله فكرى وسماع الأحاديث عنه فى ندوات الشام مما زاده تعلقا به وميلا إليه .

فلما وطد عبد الله فكرى عزمه على زيارة الشام فى سنة ١٣٠٣هـ - ١٨٨٥م جعل قصده أن يزور صديقه الشيخ عبد المجيد الخانى فى دمشق . فكانت زيارة أنس بها عبد الله فكرى ولقى فيها كثيرا من علماء دمشق وأدبائها وعرفه الشيخ إلى كثير من وجوه الشام ، فوجدوا فى الزائر المصرى علما كثيرا وأدبا لبابا ، ووجدوه فى الشريعة متمكنا ، وفى رواية الأخبار متثبتا ، ووجدوا فى محفوظه ومرويه وفى رويته وارتجاله أديبا يملأ الأبصار كما ملأ بالأمس أسماعهم .

ولقد تحدث عنه كاتب فى المقتطف فى معرض الحديث عن رحلته الشامية فقال (ثم ارتحل إلى دمشق ونزل فى بيت حضرة الأستاذ محمد الخانى وأقبل عليه علماء الشام وذوو الوجاهة والفضل منهم ، يحاضرونه ويذاكرونه ، فرأوا من سعة العلم ووفرة العرفان ما لم يكونوا ينتظرونه ، وشهد له فقهاؤهم بالتضلع من علوم الشريعة وفصحاؤهم بالبراعة فى كل بديعة . ومحدثوهم بصحة الرواية ، وعقلاؤهم بكمال الدراية) .

ولم لا يكون مجلس عبد الله فكرى ندوة الأدباء والعلماء فى كل أرض وفى كل مصر ؟ لقد كان فى القاهرة النقطة يلتقى حولها الشعر والأدب ، والخلية يشتارها كل شاعر وأديب . ولقد كان له من وقار مظهره وصدق مخبره وبعد همته ومروءته ما يضفى على مجالسه ألوانا من الوقار ويخلع عليها ضروبا من الاحتشام .

وكذلك كان مجلسه فى دمشق ، وكذلك كان مجتمعه فى بيروت . فقد ظل

فى هذه العاصمة اللبنانية ما يقرب من الشهرين ، وكان الشيخ محمد عبده قد عاد إليها بعد سفره إلى أوربا ، وكان بقية المنفيين لا يزالون على حالهم من النفى .

وفى هذه المدينة تعرف الأمير شكيب أرسلان إلى الشيخ محمد عبده وتتلمذ عليه ، وكان الإمام يوجهه ويشجعه — كما يعترف الأمير نفسه — فلما أخرج الأمير ديوانه الأول المسمى « بالبا كورة » ، وفى صدره قصيدة تصدير إلى الشيخ محمد عبده أشار عليه الشيخ أن يهدى الديوان إلى صديقه الشاعر الناثر عبد الله فكرى . وتلك شهادة من الإمام لها قدرها وخطرها ففعل الأمير وبعث إلى المترجم له بأبيات قوية مع الديوان . فلم يغفلها — كعادته من التشجيع والتقدير وحسن الاهتمام — ورد عليه بقصيدة من البحر والقافية مثبتة فى « الآثار الفكرية[1] » .

وقد أشار الأمير شكيب نفسه إلى ذلك فى ديوانه المطبوع فى مطبعة المنار سنة ١٩٣٥ صفحة ١٨ حيث قدم لبعض أبياته ولقصيدة عبد الله فكرى بهذه الأسطر : (لما طبعت ديوانى المسمى « بالبا كورة » ، وأنا إذ ذاك ابن سبع عشرة سنة بعثت به من بيروت إلى المرحوم عبد الله فكرى باشا بإشارة الأستاذ الإمام محمد عبده وكان فى بيروت ، وذلك مع كتاب منى مصدر بأبيات ماعدت أتذكرها جيداً وإنما أذكر منها الآن ما يلى :

إذا مارمت من مهديك كفؤا ... لقد أنفدت لؤلؤ كل بحر
فكيف يقوم عندك نزر شعر ... يذيب الرعب منه كل شطر
جعلت القول فى سيف ورمح ... وعفت النظم فى قد وخصر
فإنى عاشق غرر المعالى ... ولى نفس فداؤك نفس حر
إذا فكرت يوما فى كلام ... يكون بمدح « عبدالله فكرى »

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٤٠٨ والآثار الفكرية ص ٣٠ والإسلام والتجديد فى مصر لشارلس آدامز ص ٢٠٥

ولاشك أن قصيدة عبد الله فكرى فى الرد على الأمير شكيب فعلت فعلها فى نفسه . فهذا أمير من أمراء الشعر والأدب فى مصر يرد على أمير ناشئ من بيت أرسلان العريق ، فكان سرور الفتى بها عظيما ، لأنه ظفر بالشهادة من أهلها ، وانتزع التزكية من أربابها ، ولذلك لم يفته وهو على كبره من السن أن ينشر قصيدة عبد الله فكرى برمتها فى ديوانه هو مع أنه لم ينشر من قصيدته إلا الأبيات الخمسة السابقة .

ومن ذلك الحين انعقدت الصلة بين الأمير شكيب وعبد الله فكرى باشا . فلما مات المترجم له فى يوم عيد الأضحى سنة ١٣٠٧ هـ — ٢٧ يوليو سنة ١٨٩٠ رثاه الأمير — وكان فى مصر — بقصيدة بليغة المبنى نشرتها جريدة المؤيد أوسع الصحف العربية انتشارا فى ذلك الحين .

فى طريق عبد الله فكرى من دمشق إلى بيروت مر على بعلبك ، وكان دليله على الطريق مكار جاهل لا يعرف السبيل ولا يعرف مهمة الدليل . إلى أن هيأ الله له بعد الخبط دليلا بصيرا بالسير عارفا بالمير . فما زال المترجم له يخرج من جبل إلى روض ، ومن روض إلى غدير ، ومن غدير إلى نهر ، ومن نهر إلى عين ، ومن عين إلى نبع ، حتى بلغوا بعلبك . فأعاد الدليل الحائر الجائر إلى دمشق وبقى فى بعلبك أياما عزم بعدها المسير إلى جبل لبنان .

وقد كانت هذه الرحلة على تفرق شعابها وحيرة الدليل فيها مسرة لنفس عبد الله فكرى فكتب فيها رسالة أسماها « الرحلة البعلبكية » وأرسلها إلى صديقه الشيخ عبد المجيد يداعبه ويمازحه ، وهى رسالة خاصة لم يكن يتوقع عبد الله فكرى انتشارها ولم يكن يقدر طبعها ونشرها . ولكن الله أراد لها الذيوع حتى تناولها الأدباء واستهداها الأصدقاء ، ولذلك قصة لا بأس من إيرادها :

احتفظ المترجم له بمسودة من هذه الرسالة على عادة الناس حين يكتبون رسائلهم ، وفى ذات يوم زاره صديقه أحمد أفندى القحماوى من أهل نابلس

وكان يقلب أوراقه ويراجع رسائله ، فوقع نظر الضيف على هذه الرسالة فاستأذن مضيفه فى قراءتها ، فلما فرغ من ذلك أبدى استحسانه بها وأظهر إعجابه بطريقة الكتابة فيها ، فاستعارها من المترجم ليستنسخ نسخة منها ، وحمله فرط الاستحسان على أن يضاعف المنسوخ ليهدى منها إلى خاصة إخوانه وخلصان أصحابه . فلما كثر عليه الطلب ، وراجت بضاعتها فى سوق الأدب طبع الصديق منها بضع عشرات على مطبعة الحجر بخط يده ، ونشرها على أصدقاء الفقيد الذين كانوا يتلهفون إلى آثاره ، ويتسابقون إلى قراءة بنات أفكاره ، ورواية رسائله وأشعاره .

ولقد استصحب عبد الله فكرى معه فى رحلته إلى الشام ولده أمين فكرى . ولم يكن له فى تلك المرة مترجما ولا دليلا ، ولكنه كان على الدرب صاحبا وعلى الطريق رفيقا . فالمترجم فى هذه الرحلة بين بلاد عربية الوجه واليد واللسان . فما حاجته بين أهله وقومه إلى ترجمان ؟ .

بين الدين والدنيا

يمثل عبد الله فكرى الأديب المتين والوزير المتدين بكل ما تحويه كلمة التدين من معان .

وإذا كان فى الأدب العربى طائفة من الأدباء والشعراء أسرفوا على أنفسهم ولم تكن حياتهم نموذجا لحياة المسلم المحافظ على تعاليم دينه ، فإن عبد الله فكرى — ولله الحمد — لم يكن من هؤلاء .

وتظهر حياة الاستهتار بالدين واضحة فى مثل بشار بن برد وأبى نواس وأضرابهما من مجان الشعراء وخلعاء الأدباء ، حتى لقد كان النواسى يتغزل فى غلمان النصارى بما يكاد يكون اجتراء على الدين وقحة على المسلمين . فيقول فى غلام نصرانى :

فلولا دخول النار بعد بصيرة عبدت مكان الله عيسى بن مريما

ويقول فى الخمر ومجلسها وندمانها وسقاتها ما لم يقله الأعشى فى جاهليته ، والأخطل الأموى فى نصرانيته .

وكان بشار بن برد كثير الاستهتار بالدين ، قليل المبالاة بالوقوع فيه . وكانت حياته مرآة شعره ، أو شعره مرآة حياته . حتى لقد جر عليه استهتاره وزندقته قتله .

وحار الناس فى أمر المعرى، أمؤمن هو أم ملحد. متدين أم غير متدين؟ إلا أن الظاهر من شعره أنه كان على شك وحيرة من أمره.

ولكن عبد الله فكرى اجتمع له الأدب والوزارة فما بطر بواحد منهما، ولا كفر بنعمة ربه، ولا تهجم على اعتقاد، ولا عطل شعيرة من شعائر دينه. فقد كان صواما قواما حتى لقى ربه كما يلقى المؤمنون ربهم، أصح ما يكون معتقدا وأقوى ما يكون إيمانا، وترجع غريزة التدين فى نفس عبد الله فكرى إلى عوامل ساعدت على نموها فيه واكتمالها عنده.

ولبيته ولبيئته من ذلك أثر كبير. فقد كان جده عالما متدينا، وكان أبوه — على نشأته المدنية — متدينا. ويذكر على باشا مبارك فى خططه أن جده الشيخ عبد الله كان من بيت علم وصلاح.

لهذا لم يكن التدين غريبا على بيئة عبد الله فكرى، ولا دخيلا عليها، ولكنه كان أصيلا فيها متمكنا منها، وقوانين الوراثة هنا لا يصح إغفالها. كما أن مؤثرات البيئة والجو والمحيط لا ينبغى إهمالها، والطفل دائما يشب على الجو الذى يحيط به، فاذا كان جوا دينيا محافظا فهو إلى التدين أميل، وإلى المحافظة أقرب. وإذا كان الجو غير ذلك فالطفل غير ذلك.

ويذكر على مبارك باشا أيضا أن محمد أفندى بليغ والد المترجم له كان حسن الأخلاق دينا صالحا، وما كان له أن يكون غير ذلك، كما لم يكن لعبد الله أن يكون غير أبيه.

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل

ومما ساعد عبد الله فكرى على تدينه تلك السنوات التى قضاها فى طلب العلم فى الأزهر. فقد كان فى أول أمره متدينا ببيئته وأسرته، واليوم هو متدين بعلمه ومعرفته. فقد حفظ القرآن وروى الحديث وقرأ التفسير ودرس الفقه، وذلك كله مما يهيئ للنفس المستعدة، وللأرض الطيبة أن تخرج ثمرها وتؤتى أكلها.

ولا يغفل هنا أثر المعلمين والأساتذة فإليهم يرجع الفضل فى التوجيه والاقتداء ، وكان نصيب عبد الله فكرى منهم مما يغبط عليه ، فالشيخ إبراهيم السقا أستاذه وهو رجل جمع إلى فضل العلم فضيلة التدين .

وكذلك كان شيوخه على القوصى ، وعلى خليل الأسيوطى ، وعبد الواحد الريانى الذى شهد له صاحب الخطط بالفضل والكمال .

وللتصوف أثر فى تدين عبد الله فكرى ، وأثر فى انصرافه عن زخرف الدنيا الباطل وعرضها الزائل ، فما عرف عنه حرص فى جمع المال ، ولا طمع فى ابتغاء الجاه ، مع أن صلته بالأسرة العلوية ، وحظوته عند تلميذه الخديو توفيق وطول عهده بالخدمة الحكومية كان يمكن أن يدر عليه أخلافا من الثروة ، ويجلب له أسبابا من العيش يعرفها المتهالكون على الحياة .

ولكنه آثر أن يجمع فى رفق وأن يعمل للدنيا فى أناة واعتدال ، فما مال به جشع أو طمع ، ولا اتخذ من مركزه سببا فى تهافت على الحياة قد تضيع معه كرامة الكريم ، أو يحيد به عن النهج القويم .

والواقع أنه لم يتجه إلى شراء الأرض الزراعية بالفعل إلا بعد أخرة من عمره حينما قاربت سنه الرابعة والخمسين . وكان قبل ذلك معرضا عن الزراعة منصرفا عن التملك ، ويؤيد ذلك رسالته التى كتبها إلى صديقه الشاعر الشيخ على الليثى فى المحرم سنة ١٣٠٤ هـ المقابلة لسنة ١٨٨٦ م أى بعد الثورة العرابية بأربع سنين . فى هذه الرسالة يقول : (أطالع مولاى بأنى قد حضرت من الأقطار السورية إلى الديار المصرية مشتغل البال مرتبك الحال ، لما حدث فى المعاش من أمر الاستبدال ، لا أعلم ما آتى وما أدع ، وما يضر وما ينفع ، لكونى عديم الخبرة بالأطيان والزراعة ، صفر اليدين من معرفة هذه الصناعة ، وهى صنعة تحتاج إلى فضل كياسة ومزيد ممارسة ، وقوة مهارة وحسن إدارة ، وكد وجد وسعادة جد) .

وعجيب جدا أن يقضى عبد الله فكرى هذه الحقبة الطويلة من عمره ، وهو بعيد كل البعد عن شراء الأرض ، وأعجب منه أن يحسن العمل فى كل إدارة تولاها ، وأن يضطلع بكل عبء مصلحى كلف القيام فيه ، ثم يعترف بعجزه عن استثمار الأرض وحسن إدارتها .

ولكن سوء الأحوال كما يقول واضطراب المعاش قد حملاه على أن يفكر فى الانصراف إلى شراء أرض مما اجتمع له من مال أنفق فيه عمره .

ولهذا أخذ يستشير كل ناصح ، ويرجع إلى كل خبير حتى يوفق إلى اختيار أرض لا يبغى من ورائها إلا العيش فى ظلالها ، آمن الجناب بعد ما لقيه من العنت والارتباك فى خلال الثورة العرابية وبعدها .

وقد وجد من الشريعى باشا له ناصحا بالرأى المجرب والعقل المحنك ، فهو من كبار المزارعين وأصحاب « الفدادين » . وأتاحت له الظروف صفقة من أراضى الدومين فى ناحية الدوالطة من أعمال بنى سويف وعلى بعد ساعة منها تسقيها مياه ترعة الابراهيمية .

ومن الانصاف للحق أن نقول إن فكرة امتلاك الأرض الزراعية كانت منى نفسه قبل ذلك بسنوات . ولم تعد تلك الفكرة أن تكون أمنية يحلم بها ويرجو تحقيقها . فقد كتب إلى الشيخ على الليثى قبل الرسالة السابقة رسالة أخرى سنة ١٢٨٧ هـ — ١٨٧٠ م يصارحه فيها بهذه الأمنية ويقول :

أرجو من الله لى طينا أعيش به ... فى أرض مصر على حال السلاطين

مازلت ماعشت لى فى الطين كل هوى ... وإنما خلق الإنسان من طين

يالله ! هذا الرجل المتصوف المتزهد المؤمن بأن الملك لله ، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والذى يروى فى رسالته له إلى الشيخ على الليثى هذا البيت الحكيم .

لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة من التراب لكان الأمر مشتركا

هذا الرجل تهفو نفسه إلى الطين ؟ وتحن إليه كل هذا الحنين ؟ ليس هناك تناقض بين أول أمر الرجل وآخره ، فقد أراد من (الطين) ما يقيم العيش ، ويصلح الحال ، وينفع الولد ، وليس فى ذلك ما يمس تدينه .

فالعيب فى المسلمين أن يأكلوا التراث أكلا لما ، ويحبوا المال حبا جما .

والحق أن شراءه الأطيان لم يلق اعتراضا من أهل الدين ، فقد كانوا هم أنفسهم — ولا يزالون — يجمعون . . .

وهذا عالم دمشق وشيخ علمائها الشيخ عبد المجيد الخانى يكتب إليه مهنئا بهذه الصفقة ، ويرجو من الله أن تكون رابحة لن تبور ، ويهنئه مع ذلك بشهر الصيام .

فيرد عليه عبد الله فكرى باشا قائلا : (. . . وقد وصلنى كتاب مولاى لاحقا بأمثاله من قبل ، جاريا على جميل عادته فى الفضل ، مهنئا بالأطيان وشهر رمضان ، ولقد أحسن القران ، فهما مزرعتان ، غاية الأمر هى مزرعة بُر ، وهو مزرعة بر ، وتلك مزرعة شجر ، وهذا مزرعة أجر ، الأطيان مزرعة مال ، ورمضان مزرعة أعمال ، فعسى أن يضع فى هذه الأطيان ما أودع من البركة فى شهر رمضان) .

ولقد صدق عبد الله فكرى فما على المرء أن ينسى نصيبه من الدنيا ابتغاء الدار الآخرة ، وذلك هو أدب القرآن . وأما أدب الحديث فأن يعمل المرء لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا . . . وقد عمل عبد الله فكرى لدنياه وآخرته باعتدال فكان من المحسنين .

واهتم هذا المالك الجديد بأرضه وشغل بها ، ووجد فيها تسلية له كما نصحه الشيخ على الليثى فى رسالته إليه ، وأصبحت القاهرة المحروسة لا تظفر من عبد الله فكرى بالمقام الطويل كما كان شأنه فيها ، حتى لقد كتب إلى صديقه الشيخ

عبد المجيد الخانى بدمشق يقول (أمضيت مدة شهور من الفترة الماضية « بالأبعادية » مهتما بالحقل وبالحرث لا بالنسل) .

والحق أن هذه الأرض قد كلفت عبد الله فكرى تعبا فى الحصول عليها وانشغال بال من أجلها وسؤالا دائما عن الخبراء بها .

وترددا بين الإقدام والإحجام هو تردد العاقل غير المجرب والطبيب غير المطبب ... فقد كتب إلى الشيخ الخانى يقول « قد كنت من أمر هذه الأطيان فى شغل بال ، وحل وترحال ، واحتيال واختبال ، وقيل وقال ، من محب وقال . على غير خبرة بالزراعة ، ولا طول ممارسة لهذه الصناعة » .

ولقد بلغ من حيرته فى اختيار الأرض وانتقاء التربة الصالحة وقلة خبرته بذلك أن الإقدام على شراء الصفقة الملائمة كان يكلفه استشارة الخبراء من أصدقائه ، فكان يكتب اليهم رسائل أدبية يعرض فيها رغبته ويبدى حاجته فى أسلوب متأنق يعد مثلا عاليا للرسائل الخاصة .

وكأنه كان يعلم أن رسائله هذه ستروى من بعده ، وتتخذ نموذجا للكتابة الأدبية فى عهده ، فبالغ فى تجويدها وإتقانها حتى يراها الراءون ويقرأها القارئون فى أسلوبها الذى جارى به رسائل الكتاب فى العصر العباسى الثانى كابن العميد وبديع الزمان والقاضى الفاضل وأضرابهم .

فقد كتب إلى صديقه السيد أباظة باشا من رسالة يرجو منه أن يبحث له عن أطيان (إن الأطيان على ثلاثة أحوال ، الأولى ما تكون سبب اليسر والغنى ، والثانية ما تكون سبب العسر والعنا ، والثالثة لا هناك ولا هنا ، فالأولى هى بهمة السيد أولى ، والثانية أعوذ بالله منها ، والثالثة أنزه تلك المروءة العلية عنها . . وإنى وإن كنت جئت فى الزمن الأخير كما اختارت الأقدار ، وفتحت الكتاب بعد العصر فى آخر النهار ، إلا أنى إذ رجوت الهمة من أهلها ، وأسندت الآمال إلى محلها ، والتمست الدر من خير ضرع ، وأنزلت حاجاتى بواد ذى زرع ، واثق بنيل الثمرة المطلوبة ، والوصول إلى الغاية المرغوبة) .

كان عبد الله فكرى متهيبا الزراعة حينما دخل بابها وسلك أسبابها ، وكل عمل جديد يتهيبه صاحبه . ولم يفتأ عبد الله فكرى يذكر ذلك فى رسائله إلى خاصة أصدقائه ، فقد كتب إلى الشيخ الخانى رسالة أخرى يقول فيها : (سبق الإلماع فى الكتاب السابق ببعض البيان عما كان فى أمر الأطيان ، وقد حان أوان الشروع فى إدارتها ومباشرة زراعتها على غير خبرة فى الفلاحة أجدها ولا سابقة ممارسة يعتد بها ، أمنى بها النفس وأعدها ، والزراعة إن لم توف حقها إجادة لم تجد إفادة ، لا سيما والمقدار كما قدمناه قليل) .

وهو يكرر فى رسائله الاشارة إلى قلة خبرته فيقول من رسالة إلى إبراهيم باشا أدهم (. . . ولكنى قليل البضاعة فى أمور الزراعة ، حديث العهد بهذه الصناعة) .

ويقول من رسالة إلى الشيخ على الليثى كتبها سنة ١٣٠٢ هـ — أى وهو فى الثانية والخمسين من عمره (كنت متغيبا عن محروسة مصر فى بهتيم مدة تقرب من أسبوعين ، قبلها نحو منها ، وسأعود إليها إن شاء الله عن قريب لملاحظة أشغال التحضير ، إذ ليس هناك من أثق برأيه وتصرفه وخبرته ، وإن كنت أيضا عديم الخبرة بأشغال الزراعة حديث العهد بهذه الصناعة) .

نعم كان عبد الله فكرى حديث العهد بالزراعة فى ذلك الحين ومات بعد ذلك بخمس سنين . فهل أكسبته تلك السنون الخمس من الخبرة والمعرفة ما عوضه ما فاته فى سابق العمر ؟؟

هذا سؤال ليس جوابه فى كتبه ورسائله ، ولكن جوابه فى فروع دوحته فقد بارك الله له فى الشجرة ، وطاب الغراس فطابت الثمرة .

امتاز تدين عبد الله فكرى بالجمع بين الاعتقاد والعمل ، ولم يكن متدينا فقط بصلاة يقيمها أو دعوات يرددها أو أوراد ينشدها ، ولكنه كان مؤمنا

بقلبه ولسانه متدينا بقوله وفعله ، وكان يتقى الله فى أموره فأفلح ، كأنما كان عبد الله بن قيس يعنيه بقوله :

يتقى الله فى الأمور وقد أفـ ـلح من كان همه الاتقاء

وأول مظاهر اتقائه أو تقواه هو ذلك الرضى الحلو الجميل الذى كان سائدا حياته كلها . وتقرأ رسائله كلها فلا تجده متبرما بقضاء ولا ساخطا على قدر ، ولكنك تراه دائما مؤمنا بالله متوكلا عليه ، مفوضا أمره إليه ، وما عرف عن حياته أنه تعلق قلبه بغير الله ، ولا جرى فيما يجرى الناس فيه من تعلق بالأشخاص الزائلة والخيالات الباطلة .

وهذا الرضى بالأمر المحتوم هو الدواء الذى ما بعده دواء لما نستهدف له من أحداث الزمان ، وإذا كان المقدر لا مفر منه ولا محيص عنه ففيم الجزع وفيم الهلع وفيم الثورة فيما لا تنفع فيه الثورات والنزوات ؟؟ لقد مات لابنه أمين باشا فكرى ولدان ليس بين موتهما إلا أعوام ، فحزن الوالد الجد ، ولكنه حزن المؤمن تنزل به الفجيعة الموجعة والضربة القاصمة فيحتسبها عند الله (وهو رب الآخرة والأولى وله ما سلب وما أعطى وما أخذ وما أبقى ، ولا شك أنا جميعا فى هذه السبيل نسعى ، وإن إلى ربك الرجعى)[1]

وعبد الله فكرى مثال المسلم القائم بتعاليم دينه ، فواجب الله عنده حتم الأداء ، وواجب الدنيا عنده لا يغفل على شرط الاعتدال فى الجادة والقصد فى السلوك . فهو يصلى الفروض لا تشغله عنها شواغل ، ولا تحول بينه وبين أدائها الحوائل ، وهو ينصح صديقه الشيخ على الليثى - وكان على يسار - ببناء مسجد تقام فيه الشعائر ، ويرتفع من فوق منارته الأذان باسم الله الكبير ويحضه على البناء ولا يمنعه من ذلك حسن التشييد ، وإنما القصد أن يتم البناء على وجه تقوم

(١) من رسالة له بالآثار الفكرية .

به الشعيرة . ويحذره أن يكون الشيطان له معطلا بإنجاز المسجد على صورة جيدة ، فإن سرعة الإنجاز فى مثل ذلك المقام أولى بالاتباع ، ويذكره بأن بيوت الله يجملها الإخلاص والبساطة أكثر مما يجملها التشييد والتحسين ، ويقول له فى نص عبارته (ثم إذا كان المانع من بناء الجامع أنك تريد تشييده وتمكينه وإتقانه وتحسينه ، وكان ذلك يحتاج لأدوات غير عتيدة ويتوقف على مدة مديدة فابنه بأسهل ما تيسر ، ولو كان باللبن الأخضر ، تقطع بذلك على الشيطان طريق مكره ، وترد سهام كيده فى نحره ، فلا يبعد أن يكون تأميل إتقانه والرغبة فى تحسين بنيانه حيلة منه دسها وخديعة أسسها ، يسوقك بها إلى التسويف والتأخير ، ويعوقك عن هذا الخير الكثير ، أعاذنا الله من شره ووفقنا للاحتراز من مكره ، ولعل المسجد كلما كان أقرب إلى البساطة والسذاجة كان أقرب للإخلاص وأبعد عن المباهاة وأليق بالخضوع والخشوع فإنه محل مسكنة وخضوع) .

وعبد الله فكرى يصوم رمضان ، وتشير رسائله إلى القيام بهذه العبادة ، ولم يذكر ذلك فى رسائله على سبيل المباهاة والافتخار ولكنه يذكره حين يقص نبأ أو يروى خبرا . وهو ذكر يقتضيه السياق ولا يدعو إليه رياء أو نفاق ، وحاشا لرجل مثل عبد الله فكرى أن يرائى وهو مؤمن بالله يعرفه حق المعرفة ويعرف أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ولقد أكمل عبد الله فكرى ركنا من أركان دينه وهو فى الثانية والخمسين فانتوى الذهاب إلى مكة حاجا وإلى المدينة زائرا .

ولمكة عند عبد الله فكرى الشاعر مكان القداسة من الدين ، فهى كعبة المسلمين ، ومكان القداسة من المنبت ، فهى التربة التى مسّ جلده ترابها ، فقد ولد فيها حينما رحل أبوه إلى الحجاز مع الجيوش المصرية .

ها هو ذا عبد الله فكرى فى مكة يقف عند الملتزم وتحت الميزاب وخلف

المقام ، وها هو ذا فى زاوية من زوايا جبل قبيس يقرأ الفاتحة لصديقه الشيخ على الليثى بعد أن تلا (الحزب) الصوفى الذى اعتاد أن يتلوه منذ انضم إلى جماعة الخلوتية ، وها هو ذا يجد شيخا عائدا إلى مصر قبله فيبعث معه برسالة إلى الشيخ على الليثى . . .

وها هو ذا فى مكة والمدينة ينقطع عن الناس ، ويتواضع فى مظهره ، فلا تحيط به جلبة ولا صياح ، ولكنه رجل عادى بعيد عن مظاهر التظاهر ، حتى لقد فوت ذلك عليه أن يجتمع بكثير من أعلام الأمة الاسلامية ممن يسر لهم الحج فى ذلك العام . ومن عجب أن والد صديقه الشيخ عبد المجيد الخانى شيخ علماء دمشق خرج إلى الحج فى العام نفسه فلم يجتمع أحدهما بصاحبه ، ولو علم كل واحد منهما لسعى إلى لقاء أخيه لما بين عبدالله والشيخ من صلات تتجلى فى الرسائل المتبادلة بينهما .

وها هو ذا فى المدينة وله فيها صداقات مع طائفة من أهل الفضل ترامت إليهم أنباء مقدمه زائرا فاستعدوا لضيافته وتنافسوا فى قراه ولكنه آثر التفرد حتى تكون رحلته لله ولرسوله لا يتخللها اشتغال بسؤال عن أحوال .

وهاهو ذا فى القاهرة لا تفوته زيارة الحسين سبط الرسول ، يقوم فى مسجده مصليا ، وفى الضريح داعيا ، ثم يعود من رحـــلة الشام ، فيبدأ بزيارة الحسين .

ولقد ذكر كثير من الشعراء والأدباء الخمر فى شعرهم وكتابتهم . ولكن عبد الله فكرى لم يعرف عنه ميل لمنادمة ، ولا اشتهر عنه هوى لمجالس شراب ، وقد كان يحلو له التنادم مع أصحابه على الحديث الشهى والماء العذب الروى ! ! وظل على ذلك حياته كلها فهو فى شبابه عزوف عن اللهو ، متوقر فى صلواته خاشع فى ذكره وحلقاته ، وهى فى شيخوخته يحمله وقاران : وقار الشيخوخة ، ووقار التدين .

عرف الشيخ محمد عبده من عبد الله فكرى هذا التدين فكان به معجبا، وعليه مثنيا فى مجالسه، حتى لقد كتب الأمير شكيب أرسلان فصلا عن الشيخ محمد عبده جاء فيه ما يأتى : (وكان أيضا شديد الحب لعبد الله باشا فكرى، لا يفتأ يذكر محامده ومتانة دينه ورقة أخلاقه، ويحفظ من شعره، ويعجبه منه قوله خطاباً للخديو توفيق .

ولو شئت كانت لى زروع وأنعم ومال به الآمال أقتادها قسرا[1]

ولكنها نفس فدتك أبية تعاف الدنايا أن تمر بها مرا

وتلك شهادة من الإمام رواها أمير عربى عرف بالخلق المتين، والمنطق الأمين .

رجل أخرى

كان عبدالله فكرى باشا شاعرا وناثراً . فهو أديب بإجماع قومه واعتراف أهل زمانه .

وفى الدنيا أدباء كثيرون، وفى العربية شعراء وكتاب لا يخلو منهم زمان ولا تنقطع بهم سلسلة الدهور .

وفى هذه المزية يشترك مع عبد الله فكرى كثير ممن نقرأ آثارهم، ونترجم لهم .

والأدباء من الناس، لا يميزهم منهم إلا ما يميز الفرد من الفرد والشخص من الشخص من فروق تسخو بها الطبيعة على واحد، وتضن بها على آخر، على الرغم من اجتماعهما على صفة واحدة فى الأدب، أو انعقادهما على مرتبة واحدة من القدر الأدبى . فيقال حينئذ إن فلانا الشاعر أو فى من ضريبه الشاعر

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٤١٠

الآخر . ويقال إن فلانا الأديب أصدق للود وأحفظ للعهد من قرينه الأديب الآخر . فاذا وازنت بين الشاعرين أو الأديبين فى كفة الفن ، فقد تجد الكفتين متعادلتين ، ولكنك إذا خرجت بالموازنة إلى ميدان الخلق أو السلوك وجدت لأحدهما فضلا ولإحدى الكفتين رجحانا ، وذلك شىء لابد منه لتقدير الرجال من وجوه متعددة لا من وجه واحد ، وهذه المرجحات الخلقية لاتؤثر فى الفن نفسه ولكنها تؤثر فى التقدير العام للأديب .

وليس من لغو الكلام وحشو القول أن تدرس أخلاق الأديب فى فصل مستقل ، وخاصة إذا كانت دراسة الأديب عامة من جميع أقطاره ومن حيث التفتّ إليه ، فهنا يجب القول ويحمد الكلام . فهناك نواح إنسانية من الأدباء تقف بمنأى عن فنهم ولكنها تدخل فى صميم طبيعتهم ، وقد لا يكون لتلك النواحى أثر فى الفن ولكن أثرها فى قرائهم فيه من المكسب الخلق مالا يصح إغفاله ولا إغضاء العين عنه ، فإن وفاء عبد الحميد الكاتب لايدخل فى عمله الفنى ، ولكنه يدخل فى باب من الخلق لم يهمله مؤرخوه ، وقد يكون فن عبد الحميد فى الكتابة غنيا عن دعامة من خلق يلتمس ، ولكنه فن سما به الخلق الرفيع فكان حريا ألا يسكت عنه ، ولم يخل عمل عن عبد الحميد من الإشارة إلى وفائه لمولاه مروان آخر خلفاء بنى أمية ، فقد آثر أن يبقى معه على اختلاف الحال وإدبار الدنيا وتبدل الأمور السياسية ، وكبر عليه أن ينحاز إلى عدوه حتى يشفع له إعجابهم به ويحملهم ذلك على حسن الظن به والاطمئنان إليه ، فيجد بذلك مدخلا إلى ترضيهم واجتلاب النفع لمولاه .

وكان مروان نفسه صاحب الرأى فى ذلك إشفاقا على كاتبه وطمعا فى مرجو نفعه لو نزل من العباسيين منزلة تليق بأدبه ، ولكن عبد الحميد وجد فى ذلك غدرا لاينهض بعذره ورأى أنه يصبر مع مولاه حتى يأذن الله بالفتح فينجو معه أو يريد الله غير ذلك فيهلك معه .

وأنشد هذا البيت :

أسر وفاء ثم أظهر غدرة فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

وهناك كاتب آخر تعدل منزلته فى الخلق منزلته فى فنه هو عبد الله بن المقفع فهو فى البلاغة أمة وحده ، وهو فى الخلق والترفع عن الدنايا والوفاء المحض أمة وحده ، وتأتى هذه مع تلك فى معرض الحديث عنه أديباً وإنسانا .

وقد تعلو فى الشاعر أو الكاتب ناحية من الخلق وتسفل ناحية ، فيعطيه التاريخ حقه لا يبخسه ، ولا يجور فى الحكومة عليه ، كأبى نواس مثلا فقد كان على مجونه وعبثه وتهالكه على الشراب وتهافته على ما وراء ذلك ، أريحيا وفيا ذا مروءة ، وموقفه من محمد بن مناذر شاعر البرامكة وقريعه فى الفسق والمجون موقف يدل على ترفع النفس الشاعرة عن موقف الشماتة والحقد ، فقد مد إلى ابن مناذر اليد الآسية المواسية حين انقبضت عنه يد الرشيد فى أحد مواسم الحج .

وليس عجيباً من أبى نواس أن يحسن إلى ابن مناذر . فليس فى الإحسان موضع للعجب . ولكن العجب أن يسىء ابن مناذر إلى أبى نواس قبل ذلك الموسم بعام إساءة تبلغ من فنه وشعره ، فينساها أبو نواس ويدفعها بالتى هى أحسن .

وذلك موقف لم يغفله التاريخ الأدبى وهو يؤرخ لأبى نواس .

وهذا القاضى الفاضل كاتب مصر فى وقته وإمام الديوانيين فى عصره ، يؤرخون له فى الأدب فيقولون : إمام ، ويؤرخون له فى الخلق فيقولون : خير وفىّ همام .

وهذا الجاحظ عجيبة هذه الأمة العربية أو أحد عجائبها . . . لم يغفلوا وهم يترجمون له سماحته وجوده وكثرة مواساته لإخوانه وهم يتحدثون عن علمه وأدبه وعميق مشاركته فى كل علم .

ومن ناحية أخرى يقولون إن فلانا الأديب كان من فنه فى القمة ، ومن

أدبه فى الصدارة ، ولكنه كان سليط اللسان خبيث الكلام . ويقولون إن فلانا الأديب صارت له فى الأدب مدرسة ، وانعقد له فى الكتابة لواء ، ولكنه كان وضيع النفس صغير الهمامة . ويقولون إن فلانا الأديب زعيم فى الأدب وإمام فى النقد وعديم النظير فى الأسلوب ، ولكنه ملتوى المسالك دنس المداخل ، يغمز ويلمز من وراء الستار ، فليس فيه صراحة الرجال ولا شجاعة الأبطال . ويقولون إن فلانا الشاعر له الصور الخوالد ، وله المعانى الأبكار ، وله مواهب من الفن لم تتح لغيره ، ولكنه رقيق فى دينه ، مطعون فى خلقه ، ضعيف فى مروءته .

فالخلق ليس بسائر مع الفن ولا ملازم له إلا بمقدار ماتؤثر الفنون عامة فى الأخلاق ؛ فإذا أعوز صاحب الفن شىء من الخلق فهو نقص من حيث إنه إنسان لامن حيث إنه فنان . . .

فاذا اجتمع الفن والخلق فذلك كمال كل الكمال .

ولقد كان عبد الله فكرى أديباً له فى عصره أستاذية ، وله فى أدبه مكان الصدر ، وخاصة فى نثره ، فقد جرى فيـــه على طريقة ود أدباء عصره لو أدركوه فيها .

فماذا كان نصيب ذلك الأدب من الخلق ؟

نترك الجواب عن هذا السؤال — أول الأمر — لشهادة أهل عصره فهم الذين عرفوه وخبروه وهم الذين تواتر عنهم إلى مؤرخى الأدب فى عصرنا ما ننقله نحن إلى من بعدنا ؛ وهى أمانة لا يخرم منها حرف ، ولا يبالغ فيها بوصف .

كان الشيخ محمد عبده يذكر فى مجالسه عبد الله فكرى ويذكر محامده ، ويعدد أخلاقه ، ويتخذه مثلا على الخلق القويم الذى لم يأشر بمنصب على حين يأشر الناس بمناصبهم ، أو بما يصيبون من عرض قد يزول ، أو نعمة قد تحول .

وشهادة الأستاذ الإمام يرويها الثقات ممن ترجموا له كالأمير شكيب أرسلان والسيد رشيد رضا صاحب المنار ، وهى شهادة سمعها الفاضلان من الإمام مرددة فى مجالسه ، مكررة فى أحاديثه .

ولقد أشار كاتب المقتطف فى نوفمبر سنة ١٨٩٠ وهو من أوداء الفقيد إلى أخلاقه فذكر منها العفة والنزاهة والمبالغة فى اتقاء الشبهات والبر بالأهل والرحمة بالناس ، وسماحة الأخلاق ، ولين الجانب ، والمياسرة فى المعاملة ، والإقناع بالحق متى بان له وجه الصواب فيه ، فلا يكابر ولا يجادل ولا يراوغ .

وهذه صفات فى مجموعها تدلنا على السر فى المكانة التى وصل إليها عبد الله فكرى فى قلوب أهل عصره . فلقد أدناه منه الخديوى إسماعيل واختصه بتربية أولاده ، وقربه الخديوى توفيق وأجله الوزراء وأحبه الأدباء ووجد هؤلاء من يسر جانبه ودنو تواضعه ما أطمعهم فى الانتساب إليه والاستظلال بظله . ولا بأس من إيراد بعض ماذكره كاتب المقتطف خاصا بأخلاق الفقيد فقد يكون فى إعادة هذا الكلام مثل يحتذى وأسوة تؤتسى ، وقد يكون له سبيل إلى قلب مستعد أو تربة صالحة ، وخاصة فى زمن غلبت فيه المادية على الروحية وطغت المنافع على المبادئ ، واستحالت الأخلاق من معانيها النبيلة المجردة إلى مراعاة المصالح .

قال كاتب المقتطف[1] . (وكان رحمه الله عفيفاً نزيهاً مبالغاً فى اتقاء الشبهات متشدداً فى التحرج من المحظورات . فنفسه كما قال « تعاف الدنايا أن تمر بها مرا ، تبرجت له الدنيا فى أحسن حلاها وتعرضت له فى أبهج زينتها وأعلاها ، وتوسلت إليه أن ينال منها . فكان كما قال :

ولو شئت كانت لى زروع وأنعم ومال به الآمال أقتادها قسرا

---

(١) المقتطف عددا اكتوبر ونوفمبر سنة ١٨٩٠ .

فقابل الإقبال منها بالإعراض عنها ، واختار حلية الشرف على لذة الترف ، وآثر الفضيلة على المنافع الجزيلة ، ورضى بالكفاف مع مزية العفاف ... وكان رحمه الله رءوفا رحيما باراً كريماً سلس الأخلاق لين الجانب لطيف المحاضرة بعيداً عن المعاسرة قريباً إلى المياسرة ، ينتصف من نفسه فى الحق ولا ينصرها فى الباطل ، لا يأبى أن يقول أخطأت متى أقنع ، ولا يخشى إذا ظهر له خلاف رأيه أن يرجع . وكان صادق اللهجة ، لا ينطق بكلمة حتى تكون لها فى نفسه حقيقة واقعة) .

أجمع الذين رثوا عبد الله فكرى على اثنتين فيه : مكانته الأدبية وصفاته الخلقية ، حتى لم تخل مرثية واحدة من الإشارة إلى هاتين المزيتين .

وأغلب الراثين له كانوا من أصدقائه وسماره وزوار داره ورواد مجالسه فلذلك تعد شهادتهم دليلا على ما نحن بسبيل الكلام فيه من أخلاق الفقيد .

وإذا كان فى بعض المراثى مبالغة فى التقدير ، فلأنها قد لا تكون عن معرفة خاصة أو اختبار وثيق أو صلة متينة بالمرثى كما نجده فى بعض المراثى فى عصرنا اليوم ، فأغلب ما فيها اليوم ترديد لعبارات تذهب مع الصيغة واللفظ أكثر مما تذهب مع الصدق والحق .

أما المراثى التى قيلت فى عبد الله فكرى فهى من قوم كانوا خلصاءه وأصدقاءه . ففيها من الصدق والواقع والاختبار ما يجعل لها فى الاستشهاد قيمة ويضفى عليها من الحق أثوابا .

فلقد كان من أصدقائه حفنى ناصف بك ومصطفى نجيب بك والسيد محمد على البيلاوى والشيخ محمد محمود الشنقيطى والشيخ محمد البسيونى مفتى الخاصة الخديوية والشيخ سليمان العبد ومحمد عثمان جلال بك والشيخ عبد المجيد الخانى والشيخ على الليثى شاعر الخديو إسماعيل ومرافقه فى حله وترحاله والشيخ عثمان زناتى الشاعر الرقيق الذى كان آخر العهد مدرسا بالمدرسة الحربية والشيخ طه قطرية المصحح بالمطبعة الأميرية والأمير شكيب أرسلان وعلى بك فهمى

رفاعة وكيل المعارف ونجل العالم الكبير الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى والشاعر الشاب ولى الدين يكن وإسماعيل باشا صبرى الشاعر الرقيق وكان فى ذلك العهد محافظا لمدينة الإسكندرية .

هؤلاء الأدباء رثوا الفقيد كما هى العادة فى الأدب العربى حين يموت شاعر أو أديب . ولكنهم كانوا أعرف الناس به فصوروه فى مراثيهم كما كان أدبا وخلقا . وإذا أجازت لبعضهم المبالغات الشعرية أن يكبروا من قدر المصيبة كما هى الحال عند شعرائنا — فإن تصويرهم لأخلاق الفقيد واتفاق الصورة عند كل راث منهم دليل إجماعى على الصفات العالية التى حبى بها المرثى .

فحفنى ناصف يبكى فيه حسن الأخلاق ورقة الجانب والنزعة الخيرة التى كانت تغلب عليه فى حياته ويقول :

وما لرقة حسن الخلق منشـــدة ردوا على جفنى النوم الذى سلبا
وكان مغرى بفعل الخير يحسب فى إســـدائه أنه قد أدرك الأربا

وهذه الرقة فى الخلق كانت روحا يستروح منه أهل جيله نسمات تعطر ألسنتهم وتشيع المحبة فى قلوبهم . فهذا محمد بك عثمان جلال يشير إلى تلك الرقة بقوله فى مرثيته :

وغاب وما ودعت منه شمائلا أرق مرورا من نسيم على نهر

أما صديقه الشيخ على الليثى فيصف تلك الرقة بقوله :

لقد كان ذا بر عطوفا مهذبا سجاياه صفو القطر بل هى أمثل
رقيق حواشى الطبع سهل محبب إلى كل قلب حيث كان مبجل
شمائله لو قسمت فى زماننا على الناس لازدانوا بها وتجملوا

وما أبرع الأمير شكيبا حين يشبه هـــذا الخلائق بالرياض فى مرثيته حين يقول :

خلائق أمثال الرياض نواضر تضوع منها عرف زهر الكمائم

أما طبيعته الخيرة وميله إلى إسداء الخير التى أشار إليها حفنى ناصف فى بيته الثانى . فقد ذكرها الأمير شكيب فى قوله :

محاسن روح ما ابتغت فى زمانها سوى الخير والمعروف يوما لآدمى

لم ير عبد الله فكرى أن يعمل الخير فقط بل رأى أن يحض عليه ويدعو إليه . ولم يجد غير ولده أمين باشا يدعوه إلى ذلك ، فانه أولى الناس بتوجيه الموعظة وإسداء النصيحة على أن الحكماء حين ينصحون لا يخصون واحدا ولا يقصدون شخصاً معينا . فالنصيحة إذا انصرفت إلى القريب فهى جارية فى الحكم على القريب والبعيد ، ولكن الحكيم يخص بها القريب لمكان قرباه ويشمل بها البعيد لعموم نفعها وشمول فضلها .

ومن هنا كان قول عبد الله فكرى لولده أمين :

وخير عباد الله أنفعهم له كما جاء فى قول النذير المبشر
فكن راغبا فى الخير ما عشت وانتصب لنفع الورى ما اسطعت والشر فاحذر

وفى حياة عبد الله فكرى مايدل على أنه كان أنفع الناس للناس ، فما كان نصحه كلاما يسطر أو عبارة تحرر ولكنه أخذ نفسه بما كان ينصح . وقد كان فى المعارف ذا نفوذ وجاه ، وذا يد تضر وتنفع ، وتخفض وترفع ؛ فما قدم فيها لإنسان ضرا ، ولا منع فيها عن مستحق الخير خيراً . لأنه كان يرى أنه يعطى عن يد الله التى وهبته وعن حق الله الذى خوله إياه . . .

والواقع أن طبيعة الخير فيه ترجع إلى عاملين لا أحسب لهما ثالثا : الأول ما ركب فيه من فطرة لا دخل للكسب فيها ، وتلك شيمة يفطر الله بعض الناس عليها كما يفطر بعضهم على الشر والأذى .

فليس لعبد الله فى ذلك فضل إلا ماله من فضل الله وفضل الفطرة السليمة . والثانى : التدين والتقوى وذلك عامل يزيد الخير بفطرته خيراً بتقيته . ولقد كان نصيب المترجم من دينه وتقواه ما لا يصح إغفاله عند الحديث عن أخلاقه .

فهو تدين لايقصد منه تزمت ولا تبلد ولا يقصد منه إسباغ الوضوء ولا إطالة السجود ولاذكر الله فى القيام والقعود ، مع إغفال حكمة الدين من إشاعة البر وحب الخير وإعمال النظر وتدقيق الفكر . ولكنه تدين حكيم عاقل لا ينافى الأصول ولا يتخلف عن المعقول . ومن هنا كان عبد الله مجددا بمقدار وما كان جامدا ولا راقداً .

وإلى هذا التدين والتقوى أشار السيد محمد البيلاوى فى مرثيته والشيخ محمد محمود الشنقيطى بقوله :

مضى فى سبيل الله فكرى مزودا بزاد من التقوى لينفع فى الحشر
تزود بالتقوى ولم يك غافلا عن الموت بل قد كان منه على ذكر

والشيخ سليمان العبد والشيخ محمد البسيونى والشيخ على الليثى فى قصيدته اللامية الطويلة .

كان هذا التدين الحكيم الرشيد مرقاة صعد بها عبد الله فكرى من أقل الوظائف شأنا إلى أكبرها أمرا وهى الوزارة . فقد لازمه ذلك طول حياته وكان على هديه يستبصر ، وعلى ضوئه يقدم فى الأمر أو يحجم ، لأنه بين اثنتين حين يعرض له الأمر من أمور الدنيا ، فإما أن يحتكم فيه إلى فضائل دينه وأقضية ربه ، وإما أن يميل فيه إلى أغراض نفسه ، وعواطف قلبه ، وكان دائما يؤثر جانب الدين ويرجح كفة التقوى .

وخير مثال على ما أخذه فى الأمور بالتقية ومراعاة جانب العدل أن شخصا جاءه يسأله التوسط أمام لجنة من لجان الامتحان حتى تأخذه بالرفق فى السؤال فكان المترجم بين اثنتين إما أن يرد السائل ردا لا يليق بما عرف من أخلاقه وإما أن يوصى به وصية [كما يفعل بعض الناس] وذلك قد لا يتفق مع الحق والعدل .

ولكنه خرج من المأزقين بكتاب لطيف يعتبر نموذجا فى التواصى قال فيه :

(طلب منى بعض المتعرضين للامتحان أن أوصيك به ، فأوصيك فيه وفى أمثاله على العموم ـ أيها الأخ فى الله ـ بتقوى الله ولزوم جادة العدل والحق وتقديم الأحق فالأحق ، وفى ثقتى بدينك وكمال يقينك ما يغنى عن الوصية فى القضية ، ولكنى وعدت الرجل إذ جاء طالبا ، وها أنا قد فعلت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت) .

فلقد أرضى السائل وبر بوعده فى التوصية به ، وأرضى نفسه بأن ألزم المسئول باتباع الجادة وعدم الحيدة عن العدل ، وأرضى المسئول بأن رده إلى التقوى والعدل ولم يرده إلى الشفاعة والوساطة حتى توفى كل نفس حقها وتأخذ قسطها .

وقد كان فى استطاعة عبد الله فكرى أن يرسل الوصية على إطلاقها من غير تقييد بلزوم الحق والعدل لو لم يكن المقام مقام امتحان يكرم المرء فيه أو يهان ولكنه رأى التوصية فى مثل هذا المقام إنكارا لعمل العامل وجهد المجتهد وتحصيل المحصل وهو رجل يؤمن بأن الله لا يضيع أجر العاملين .

وكيف يؤثر الموصى به على عامل مجتهد لم تشمله أنظار ولم يدركه اعتبار ؟

هذا موقفه العادل من شخص طلب منه الشفاعة فى اجتياز امتحان ، وهو مطلب غريب خرج منه المترجم له خروج الأريب اللبيب .

أما موقفه من الشفاعة فى سيئة اجترحت أو إثم اكتسب فاسمع ما كتبه إلى الشيخ حسين المرصفى صاحب « الوسيلة الأدبية » يشفع فى شاب أساء إلى الشيخ وينتظر العفو : (حضر إلى شاب ينتمى لحضرة الشيخ أيده الله ويذكر أنه ابن أخ له كان ثاويا بحماه متقلبا فى أفناء نعماه ، إلى أن وقع فى أمر أوجب تغير الخاطر من جهته وإبعاده على قرب قرابته ، ويظهر التأسف مما صار إليه والتلهف على ما كان عليه ، ويلتمس أن أعطيه كتاب شفاعة يتوسل به إلى العفو ، ويتوصل بسببه إلى الصفح والصفو ، ولكنى توقيت الهجوم على إجابة طلبته وإسعافه برغبته لعدم معرفتى بصورة ما أتاه وحقيقة ما جناه ، ومكانته

من الشيخ أعزه الله ، فكرهت أن أخاطب أخى الشيخ بما قد ينبو عنه سمعه وينفر منه طبعه ، وأحببت أن أبتدئ بمطالعته استطلاعا لرأيه السديد واستنباطا لفكره السعيد ، حتى إذا كان ما أتاه هذا الشاب أمرا يغتفر ، وجرما يتنصل منه ويعتذر وذنبا يحتمل أن يتاب منه ويستغفر ، وزلة قدم يكتفى فى جزائها بلذعة ندم أجبته إلى شفاعة حسنة وإلا صرفته بطريقة مستحسنة ، فليتفضل على الأستاذ بالتعريف عن رأيه الشريف . . .)

فالمترجم رقيق الذوق رقيق الحس لم يهجم على الشيخ بطلب العفو والتماس الصفح . . ولكنه توقى الهجوم على أمر قد لا يكون الشيخ مستعدا له أو متهيئا لقبوله ، ورأى أن يبدأ الشيخ بالمطالعة والمراجعة فإذا كان هناك موضع للعفو مضى فى شفاعته وإلا صرف الشاب عن طلبه بطريقة مستحسنة .

ولا يدل هذا الكتاب على براعة الكاتب أكثر مما يدل على حسن أدبه وخلقه ، فهو لا يلزم الشيخ بالعفو لأنه يعلم أنه إن عفا ففضل وإن أخذ فبحق .

ولا أدل على رقة الحس عند المترجم من الحكاية التالية :

« لما خرج من دمشق إلى بعلبك بعث معه مضيفه الشيخ عبد المجيد الخانى بغلام يدله على الطريق ، ولكن الغلام لم يكن على الدرب دليلا ولا بالسبل عارفا ، فضل وأضل معه الركب . فكتب المترجم إلى صاحبه رسالة يصف فيها ما حدث على سبيل السرد والقص لا على سبيل الشكوى .

ثم علم المترجم بعد ذلك أن صاحبه غاضب على الغلام وأنه مقصيه عن عنايته ومبعده عن رعايته مع قديم خدمته . فاستاء لذلك عبد الله فكرى وكتب إلى الشيخ عبد المجيد الخانى يقول (وليس فى قلبى لذات الرجل شىء من الغيظ والحقد ، إذ لم يأت بشىء مما كان على عمد ولا عن قصد وإنما أخطأ فيعذر ، ولا يؤاخذ ولا يشكر ، وهذا القدر أردت لا أكثر ، وكنت ذكرت ما ذكرت من قبيل الحكاية ، لا على سبيل الشكاية ولا بقصد النكاية . فليصف خاطر

مولاى من جهته وليعد عن مؤاخذته ، وإن كان له مع رئيسه سابقة معاملة فليعد إلى معاملته وصلته . فالرجل فى الحقيقة معذور وذنب الخطأ مغفور) .

وهذا الحس الرقيق كان يتبعه دائما قلب شفيق قد تؤثر فيه الهفوة ولكنه يعود بعد ذلك إلى الصفاء ، كأن لم يكن قبل ذلك شيء ولم يحدث قبل ذلك أمر .

بين الجد والفكاهة :

يقول الشاعر :

أفد طبعك المكدود بالجد راحة ... يجم وعلله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

وقد كان عبد الله فكرى على جده ووقاره يميل إلى الدعابة المستملحة والفكاهة المروحة على ألا يخرجه إرسالها عن جادة الوقار ، ولا تهون الحياة إذا كانت ثقيلة بالجد ، ثقيلة بالتزمت ، كما أنها ترخص إذا كانت مهينة بالمزاح الدائم والمضاحكة التى تأتى فى غير مناسبتها .

ولا بأس أن يروح المرء عن نفسه بالفكاهة يرسلها أو يسمعها ويتقبلها فتقلب عبوس الدنيا إلى ابتسامة شائقة ، وتحيل السواد من لون الحياة بياضا .

ولا بأس على المسلم المتدين أن يمزح ويتفكه فى اعتدال لا يسرف وقصد لا يجور ، فقد كان النبى عليه السلام يمزح ولا يقول إلا حقا .

ومن هنا نجد الفكاهة عند المترجم له ، ولكنه لا يرسلها إلا مع خواص أصدقائه وخاصة خلصائه ، ترويحا للخاطر وراحة للنفس ورفعا للكلفة بين الصديق والصديق .

وفكاهة عبد الله فكرى هى فكاهة الطبع لا فكاهة التكلف ، ويدل على ذلك خفتها وذهابها على سجيتها فلا تحس وأنت تقرؤها أنها دخيلة أو مجتلبة .

ولقد جمع إليها خفة الروح التى عرف بها الأدب المصرى . وهو فى ذلك شبيه بحفنى بك ناصف أو حفنى ناصف شبيه به ...

وفرق ما بين الرجلين أن خفة حفنى تجلت فى شعره وخفة عبد الله فكرى تجلت فى نثره .

ورسائل فكرى إلى أصدقائه لاتخلو من كثير من مفاكهة أو مضاحكة . ولكن رسائله العامة ومقالاته تتسم بسمة الجد وتنطبع بطابع الوقار . فهو خبير بالفكاهة أين تصلح وبالنكتة فى أى مقام تملح . كأنه كما قال الشاعر :

أخو الجد إما شئت أرضاك جده وذو باطل إن شئت أرضاك باطله

فقد كتب إلى صديقه على فهمى رفاعة بك من قريته بتل حوين من أعمال مديرية الشرقية يذكر له علة طارئة باشرها بالعلاج بعيدا عن الأطباء ويذكر له اعتماده فى الطب على نفسه ويداعب لهما صديقا طبيبا بأنه لن يرى منه مزاحما فى الصناعة ولا مساهما فى البضاعة إلا إذا جمعتهما القرى فهنا لك يرى .... ويذكر له ما يعانيه من أسنانه قائلا (وأنا أجد مضغ الخبز اللين أمراً ليس بالسهل الهين ، وأقاسى من أكل الثريد مايعانيه من يمضغ الجريد ...

وأفزع إلى المهلبية لطراوتها فتتألم الأسنان من حلاوتها ، فالحلو على الأسنان المتألمة ضر ، وألمه فى الفم مر ...) .

وكتب إلى صديقه الدكتور محمد بك عامر كبير أطباء الجيش المصرى يداعبه فى ألوان من القول مابين عامى وعربى . وله رسالة إليه يصح أن تسمى بالرسالة (الحمارية) . فقد أبدع فيها الحديث عن الحمير ، وجمع فيها ألوانا من الأدب تدل على تمكن من المحفوظ والمروى فيما يتعلق بهذه المملكة التى خصها الله بأنكر الأصوات .

اسمعه يقول فى الحمارة وصاحبها (وأما قصة الحمارة ونسلها فقد عرفنا ما كان من اهتمام حضرتكم لأجلها ، لا سيما فى مادة الولادة واستكمال لوازم النفاس على العادة ، فاختار أن يسميها « ولادة » باسم الشاعرة المشهورة ، صاحبة النوادر والأخبار المأثورة . . . . . ولو تراه إذا ركب صهوة ظهرها وجرت كريمتها المصونة على أثرها . وقد أخذ فى يده العصا وكأنما هو راكب (العصا) وهى فرس الملك جذيمة . . أو كأنه ركب جناح الغمامة أو بالحرى بغلة أبى دلامة ... أو كأنما ركب الأبجر وقهر فى الحرب عنتر . . . وربما يخطبها حمار المسيخ الدجال رغبة لما فيها من الحسن والجمال . . . وهكذا تنتهى نسبتها المتينة ، إلى الحمار الذى كان مع سيدنا نوح فى السفينة ، وفى كتاب إصطبل الأخبار ومربط الآثار للشيخ الفشار أنها معشوقة الحمار الذى كان عند بشار . . .) .

وهو حين يتهكم على الشيوخ المتصابين يرق ويلطف فيصف شيخا من فقراء الفلاحين بأنه (قد ناهز الستين وغالط فى عشرين) . . .

ولما كان موظفا صغيرا فى قلم الترجمة بعث إلى صاحب له يشكو له سوء الحال وقلة المال ويشكو له ظلم الرؤساء فى التقدير وضنهم على الموظف الأمين بالزيادة فيقول (كتبت والذهن فاتر من وهن الدفاتر والتبييض والتسويد ، والتقييد والتسديد ، والتقييد والتشديد والترجمة وكثرتها والهمة وفترتها ، والماهية وقلتها والنفس وذلتها ، وراتبى لا يكفى أجرة البيت ، ولا يفى ثمن الماء والزيت وكيت وكيت ، وبالأمس وعد الوكيل بالزيادة ، واعتذر اليوم بالأصيل على العادة ، على أنها لو حصلت زيادة ، فلزيد وعمرو إلى آخر الزمن ولله الأمر) .

ولعل أظرف مداعباته ومضاحكاته ما كان بينه وبين الشيخ عبد المجيد الخانى شيخ علماء دمشق . وهو رجل اشتهر بالعلم والأدب . وكان بينه وبين

أدباء مصر فى عصره مكاتبات تدل على تمكن الحب بينهم وبينه ، وممن راسله عبد الله فكرى باشا والشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقانى . وكان للشيخ الخانى (لازمة) يستعملها فى الحديث هى لفظة المدهش ومشتقاتهـــا ، فتندر بذلك أصدقاؤه المصريون ، وجعلوها مدار رسائلهم إليه ، حتى إن الأستاذ الإمام كتب إليه من رسالة « ويهدى حضرتكم التحيات المدهشات والتسليمات المرعشات حضرات الأساتذة الأفاضل الشيخ محمد والشيخ أحمد عبد الجواد وحضرة الحاج محى الدين أفندى حمادة وإبراهيم أفندى اللقانى ، والسيد محمود أفندى الخوجة ومحمد على أفندى » .

وكتب إليه عبد الله فكرى من رسالة « أهدى إليك من منعشات التحية والسلام وأتلو عليك من مدهشات الشوق والغرام ما يجمل إجماله لو اصفه ولا يلزم تفصيله لعارفه » .

وفى هذه الرسالة المعروفة بالرحلة البعلبكية ما فيها من ظرف عبد الله فكرى وخفة روحه ، حتى لقد أرسل نفسه على سجيتها مع الشيخ ينتقل به من دمشق إلى دمر إلى الفيجة ويصف المكارى الذى حمله على حصانه ، وقد ضلت به السبل وتشعبت أمامه الطرق (ولعن الحصان الذى تحته وسبه وألحق به دينه ومذهبه ، ومن باعه ومن ركبه ، وأمواته وأحياءه ، وعشائره وأحباءه) فلما وصل إلى رأس السوقة التمس داراً للمقام والتمس غذاء . (فلم نجد غير دجاجات أضلتهن أيدى الحدثان ، وأفاتتهن مخالب أنسر لقمان ، قد وعين الطوفان ، وتطاول عليهن تقادم الزمان . فما زلن يصاولن الأيام ويواصلن الصيام حتى يبسن وسمجن ، وفنى عليهن الحطب ولم ينضجن) .

ثم عاد فى الرسالة عينها يشكو إليه تيبس المداد فى بعلبك بقوله : (أشكو من هذا المداد الجامد ما لا أشكوه من المكارى البارد) ثم يصف توقفه عن الجريان على القرطاس بقوله (فيقف عن جولاته وقفة الحمار فى المدار ، ويثبت فى مكانه ثبوت المسمار فى الجدار . . .)

وكانت النكتة النثرية تواتيه طوعا وتأتيه انقيادا لكثرة ما يعرف من الأخبار ويحفظ من الأشعار ويروى من الفكاهات ، فقد أهداه على بك فهمى رفاعة ديكا فكتب إليه قائلا : (... حصل من الأنس بما وصل من ديك الإنس ما يقصر عن بيانه ديك الجن كما يقصر فى صفته من الحسن ، ولو رآه (ديك الجن) لانتفخ مرحا أو (ابن عصفور) لطار فرقا أو فرحا ، أو ابن (قلاقس) لانتهى إليه أو (الخبز أرزى) لاحتوى عليه . والنكتة هنا تسعفه فى أربعة أعلام من الأدباء والشعراء تصح أن تكون أسماؤهم قائمة شهية من الطعام ... .

ومن ألطف كتبه فى المزاح ما كتبه على لسان بعض الأصحاب يشكو الجوع فى سفر الصعيد . ففى هذه الرسالة تتجلى روحه الخفيفة شفافة اللمس ، رقيقة الحس . ففيها يقول : (وأنا الآن لا أنال منهم لقمة ... إلا بلطمة ، ولا شربة إلا بضربة ... فإنه أمر لى بالسياط بدل السماط ، وبالجريد بدل الثريد ، وأشبعونى لكن من مربى الخيزران ، وسقونى لكن من ماء الأجفان) .

ولا شك أن مربى الخيزران هنا مما يخف على الأذن سمعه ، وعلى القلب وقعه .

ومن هنا ترى أن فكاهة عبد الله فكرى هى فكاهة الروح الخفيف ، والذوق اللطيف ، وأنها سائغة على الرغم من اعتمادها على اللعب بالألفاظ ، وعلى لطائف التورية والجناس ، كما كانت العادة جارية قبل عصره ، وبعد عصره .

وهى فكاهة تذكرنا بحفنى ناصف بك الذى عرف بالنكات الشعرية حتى صار نموذجا لشعراء النكتة فى عهده ، وفرق ما بين الرجلين أن عبد الله

فكرى استعمل النكتة فى نثره وحفنى استعملها فى شعره ونثره ، وهى نكات على كل حال لا تصل إلى درجة ال « Humour » فى الروح الانجليزية أو الفرنسية ، ولكنها تصل إلى درجة ال « Fun » وفرق كبير بين الإثنين ، ففى ال « Humour » تفطن شديد إلى غرائب المفارقات والمناقضات فى سلوك النفس الإنسانية ، وفيه من ذكاء اللمحة الخاطفة ما يثير الضحك حتى من أقل المظاهر شأناً . أما ال « Fun » ففيه اعتماد على اللفظ وعلى محفوظ الروايات ، وعلى اللعب بالصور الكلامية .

عبد الله فكري والثورة العرابية

لم يعرف عن عبد الله فكرى ميول ثورية متطرفة ، كما عرف عن العسكريين من رجال الثورة العرابية . أمثال أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى ومحمود فهمى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ، أو المدنيين أمثال السيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده الذى وضع صيغة القسم الذى أقسم به الضباط أن يكونوا يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد ، وقد تولى الشيخ نفسه تحليف كبار الضباط أثناء اجتماعهم فى قشلاق عابدين[1] .

ولا نستطيع أن نعد عبد الله فكرى باشا من العرابيين لمجرد اشتراكه فى وزارتهم التى كان يرأسها محمود سامى البارودى ، فلم يعرف عنه أنه اشترك معهم فى اجتماع قبل توليه وزارة المعارف ، أوكان ضالعا معهم فى عمل مما مهدوا به لثورتهم ، ولكنه كان ينظر إلى حركتهم نظرة المتوقى للفتن ، الحريص على الأمن والعافية ، لعلمه بما قد تجره تلك الثورة على البلاد من فساد .

ولم يكن هو وحده ممن وقفوا هذا الموقف الحذر من الثورة ، فقد كان هناك رجال مثله أمثال أحمد رشيد باشا ومحمد حافظ باشا وأحمد صادق باشا وعلى مبارك باشا .

---

(١) مصر للمصريين ج ٧ ص ١٤٠

فى عهد وزارة شريف باشا الثالثة — وهى وزارة يعدها المؤرخون وزارة الأمة لأنها تألفت برغبة زعماء البلاد وأعيانها — فى عهد هذه الوزارة كان نفوذ العرابيين يأخذ فى الازدياد ، وقد أصبح عرابى نفسه وكيلا للحربية التى كان يتولاها محمود سامى البارودى .

وكان غرض العرابيين فى وزارة شريف باشا التخلص من معارضيهم . وعلى رأسهم الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر لأنه لم يكن مواليا لهم ولا من أنصارهم ، والتمس العرابيون الأسباب لعزل الشيخ من المشيخة ، وتجنوا عليه الذنوب بشكايات اصطنعوها من رجال الأزهر حول نظام الامتحان وتوزيع الجراية .

فتألفت لجنة حكومية كان من أعضائها عبد الله فكرى باشا وكيل المعارف فلم ترعلى شكايات العلماء صبغة الحق ولكنها رأت إسناد المشيخة إلى عالم آخر وبقاء الشيخ المعزول فى منصب الإفتاء[1] .

وكان من الحكمة والسياسة أن ترى اللجنة هذا الرأى لأن عرابى — وهو وكيل الحربية حينذاك — والمنتشى بخمر الانتصار — لم يأل جهداً فى محاولة عزل الشيخ العباسى عن المشيخة .

ولسنا هنا نتهم اللجنة بالميل فى الحكم ، ولكن الحق أن حكمتها فى إبقاء الشيخ فى الإفتاء وعزله عن المشيخة كان فيها الحسم لخلاف أثاره العرابيون وأصروا عليه .

ولم يكن من الحكمة أن ترى اللجنة غير ما رأت فإن بوادر الأمور كانت تنبئ باشتداد نفوذ العرابيين من يوم إلى يوم . ولو أنهم قطعوا على أنفسهم عهداً — قبل أن يتولى شريف رياسة الوزارة — بألا يتدخل الجيش فى السياسة .

---

(١) الثورة العرابية ص ١٦٤

ومن ذلك الحين ارتاح العرابيون إلى عبد الله فكرى لأنهم لم يروا فيه مقاومة لحركتهم ، ولكنه فى الحق لم يكن من خاصة أنصارهم وكبار مؤيديهم كمحمد باشا سلطان الذى كانت تعقد الاجتماعات الوطنية فى داره . فلما استقالت وزارة شريف باشا فى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ نتيجة للمذكرة الإنجليزية الفرنسية جاءت وزارة محمود سامى البارودى فى ٤ فبراير وفيها عبد الله فكرى وزيراً للمعارف .

ولم تكن وزارة البارودى كلها من العرابيين المتحمسين وما كان فيها من هؤلاء غير البارودى نفسه وأحمد عرابى ومحمود فهمى وزير الأشغال . أما حسن الشريعى باشا وزير الأوقاف فقد اختير من صفوف النواب ، ولم يكن مصطفى فهمى باشا ليختار ، لولا حاجة البارودى إليه لمعرفته بالفرنسية التى كان يجهلها .

أما عبد الله فكرى وزير المعارف وعلى صادق وزير المالية ، فقد عرفا بالميل إلى الحركة ولم يعرفا بالتحمس لها أو المشاركة الفعلية فيها ، ولعلهما رأيا أن مصطفى فهمى وهو رجل غير ذى لون سياسى معين قد قبل الاشتراك فى الوزارة فلماذا لا يقبلانها وهما يرجوان خدمة وطنهما وأميرهما ؟.

إلا أن تطور الأحداث جاء بما لا يشتهيه عبد الله فكرى ، فقد حدثت مؤامرة الضباط الشراكسة ، وحكم عليهم المجلس الحربى أحكاما قاسية بالنفى المؤبد إلى السودان مع تجريدهم من رتبهم العسكرية وامتيازاتهم وأوسمتهم ، فامتنع الخديو عن إقرار الحكم وحدثت بذلك أزمة عنيفة بين الخديو والوزراء كان من نتيجتها تدخل انجلترة وفرنسة ومجىء أسطولهما إلى الإسكندرية وإرسال المذكرة الإنجليزية الفرنسية إلى مصر بتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ .

وافق مجلس الوزراء على دعوة مجلس النواب للانعقاد بأغلبية الآراء ولم تكن الموافقة إجماعية فقد عارض القرار ثلاثة من الوزراء هم عبد الله فكرى ومصطفى فهمى وعلى صادق . وقد دل هؤلاء الثلاثة بهذه المعارضة على حكمتهم

وبعد نظرهم فإن دعوة الوزراء لمجلس النواب مع إصرار الخديو على عدم إقرار الحكم على الضباط الشراكسة تحمل التمهيد لخلع الخديو . وذلك موقف ما كان يجدر بالعرابيين أن يصلوا بالأمة وعرشها إليه .

ولقد سجن عبد الله فكرى مع وزراء العرابيين وأنصارهم ، وحوكم كما حوكموا ، ولكنه ظل مدة المحاكمة قوى الإيمان بالله قوى الاطمئنان إلى موقفه ، فما كان له فى الشر باع ولايد ، ولا كان من يبغى مدى عمره الشر ، كما عبر عن نفسه فى قصيدته الاستعطافية المؤثرة .

وكان عبد الله فكرى من هذه الأزمة الجامحة فى حرج شديد ، ولا شك أن معارضته لمجلس الوزراء أحنقت عليه العرابيين ، كما أن تورطه فى التوقيع مع الوزراء آخر الأمر أغضبت عليه الخديو توفيق .

ولكنه على الرغم مما كان فيه من حرج كان ساعيا فى التوفيق بين الخديو والوزراء ، وتحدث مع على باشا مبارك ليذهب[1] إلى الإسكندرية ليتوسط فى الصلح بين الجبهتين المتعارضتين . ولم تثبت عليه المحكمة أنه كان ثائراً مع من ثار من العرابيين فى اجتماع مجلس الوزراء فلقد أثبت التحقيق أنه لم ينطق بكلمة مما كتب فى قرار الجمعية الأولى للمجلس .

والحق أنه كان أكثر وزراء الثورة العرابية اطمئنانا إلى موقفه وثقة بنفسه ، وكان أكثرهم توقعا لخطر ما هم مقبلون عليه من أمور تفضى إلى فتنة طائحة وثورة جامحة .

وقد حدث ما كان يخشاه ، فقد تمخضت الثورة عن احتلال الإسكندرية أول الأمر واحتلال القاهرة آخره .

وبرئ عبد الله فكرى مما اتهم به من الاشتراك فى الثورة ولكن وطنيته العالية البعيد النظر لم تكن يوما ما مثاراً للشكوك أو موضعا للريب .

---

(١) مصر للمصريين ص ١٢٤ العمود الثانى من الصفحة .

عصر وعصر :

من الحق أن حكم الخديو إسماعيل يقسم تاريخ الأدب إلى عصرين يمتاز كل منهما بطابع خاص . فالعصر الأول من حكم محمد على سنة ١٨٠٥ م إلى عهد إسماعيل سنة ١٨٦٢ يعد امتداداً للعصر العثمانى من حيث اللغة والشعر والنثر والكتابة والتأليف . إلا ما كان من بعض بواعث النهضة الأدبية كالمطبعة العربية والصحافة والبعثات الأوروبية التى كانت أول الأمر علمية عملية ، وإلا ما كان من ظهور بعض الأدباء المسيحيين الذين أصابوا قسطا من الثقافة الغربية فأدخلوه فى الأدب العربى مثل مارون النقاش الذى ترجم عددا من الروايات الأوروبية إلى اللغة العربية . وناصيف المعلوف الذى أتقن الفرنسية والإيطالية وأدخل على الأساليب العربية كثيراً من وجوه البيان فى الأدب الغربى .

والواقع أن أساليب البيان فى الشعر والنثر لم تخرج على الطريق المرسوم فى العصر العثمانى إلا قليلا .

فلقد ظل الشعر على حاله من حيث تفاهة الأغراض وسخف المعانى وإيثار جانب اللفظ على المعنى والعناية بالتاريخ الشعرى الذى كان فى ذلك الحين موضع البراعة عند الشعراء .

أما تفاهة الأغراض فقد كان قصارى الشاعر أن يعمد إلى الشىء التافه فيصفه بالبيتين أو بالمقطوعة الصغيرة معتمدا فى ذلك على الصناعة اللفظية أكثر من اعتماده على المعنى القوى كقول الشيخ محمد شهاب الدين شاعر عباس باشا الأول يصف مزولة أنشأها سلامة افندى المهندس لجامع القلعة :

ومظهرة للوقت ظهرا وغيره ... وللبرج أيضا فهى واحدة العصر
سلامة منشى رسمها وحسابها ... لجامع خيرات تفرد فى مصر[1]

---

(١) ديوان محمد شهاب الدين طبع مصر ١٨٦٠ ص ٢٠٢ .

وكقول السيد على الدرويش — وكان شاعراً لعباس الأول أيضا — يصف قصرا بناه صديق له اسمه عرفى أفندى :

وقصر كالسماء به نجوم مطالعها السعادة والبدور
على أقطاره تبكى عيون إذا ابتسمت لوارده زهور
فليس لوافد وافاه نهر وقد نفدت لمدحته البحور
وحسبك روضة فى كل مجد وفضل بالبنان له يشير[١]

وأين هذا الوصف من قول البحترى يصف قصر المعتز بالله :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزلة هائل
رفعت لمخترق الرياح سموكه وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوه لجج يمجن على جوانب ساحل
وكأن تفويف الرخام إذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه
نوراً يضىء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن فى زى رونق متلهب العالى أنيق السافل
وكأنما نشرت على بستانه سيراء وشى اليمنة المتواصل
أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها
عن صوب منسجم الرباب الهاطل
وتنفست فيه الصبا فتعطفت أشجاره من حول وحوامل[٢]

وأين هذا الشعر العالى الرصين من قول الدرويش السابق أو من قول الشيخ مصطفى الصاوى يصف داراً ابتناها الجبرتى المؤرخ المشهور :

---

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو ص ٨٤ ج ١ .
(٢) ديوان البحترى . مطبعة هندية ص ١٦٧ .

بناء يروق العين حسن جماله ورونقه يشفي الصدور صدوره
سمافي سماء الكون فانتهج العلا برفعته وازداد سرا سروره

اللهم إن هذا الكلام ليس فيه من الشعر إلا ألفاظ لم يحسن الناظم رصفها ولم يتنوق فى اختيارها فخرج كما تراه .

أما سخف المعانى فلا أدل عليه من قول محمد شهاب الدين يهنىء الشيخ أحمد التميمى بختان ولده :

ليالى ابتهاج بآى المثانى غنينا بها عن تغنى المثانى
بدت للمسرات فيها سقاة تدير علينا كئوس التهانى
هى الراح ياصاح فاشرب حلالا بذياك أفتاك مفتى الزمان[1]

وما كان من القصد أن ندخل فى هذا الكتاب من الشعر مايكون من الظلم للفن الرفيع أن نسميه شعراً . ولكن هكذا شاء النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يسمى هذا الكلام شعراً وأن يدخل أصحابه فى زمرة الشعراء . إلا أنهم على كل حال معذورون فى الطريقة التى ارتضخوها . فقد كانت ذوق عصرهم وعرف زمانهم ، ولم يك بد من الاعتراف بهم إلى أن يجىء من يحرر الشعر من هذه الأكفان البالية وينضو عنه تلك الثياب الرثة التى لازمته زمانا طويلا .

أما إيثار جانب اللفظ على المعنى فيبدو فى ولوع شعراء ذلك العصر بالمحسنات البديعية ولوعا لم يخرجوا فيه على نهج من قبلهم من شعراء العصر العثمانى . فالشيخ محمد عاقل الإسكندرى يمدح بيروت وأدباءها ويخص الشيخ ناصيف اليازجى بقوله :

نزيلهم قد شك فى أصل داره وصار يقين الأمر فى علمه ظنا[2]
مدينة ظرف ما بها غير فاضل بسيم وسيم قد حوى الحسن والحسنى

---

(١) ديوان شهاب الدين ص ١٢٩ .
(٢) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر للأب شيخو حـ ١ ص ٨٨ .

فلا تفوته هنا المقابلة بين الشك والظن والعلم واليقين ، ولا يفوته الجناس الناقص بين قوله بسيم ووسيم وقوله الحسن والحسنى . أما العناية بالتاريخ الشعرى فقد كانت بدعة ذلك العصر وهدف الشعراء حين ينظمون مدحا ورثاء وتهنئة :

وليس التاريخ الشعرى من مستحدثات ذلك العصر ولكنه يرجع إلى آخر عصر المماليك . وقد شاع فى خلال العصر العثمانى شيوعا لم تخل منه حادثة أو واقعة . على أن الحوادث العامة كان نصيبها منه عظيما . فقد أرخ شاعر مصرى مقتل محمد باشا والى مصر سنة ٩٧٥ م بقوله :

قتله بالنار نور وهو فى التاريخ ظلمة

وظلت العناية بالتاريخ الشعرى صدراً كبيراً من القرن التاسع عشر فالشاعر المصرى إسماعيل الخشاب من شعراء العقد الأول من هذا القرن يؤرخ بالشعر لكل حائة خاصة أو عامة . إلا أن الحوادث الخاصة تحتل من ديوانه مكانا كبيراً . فهو يؤرخ لمولد ولده ولمولد ابن لصديقه إبراهيم افندى كاتب البهار بمصر ، ولعرس ابن لصديقه محمود محرم التاجر . ويؤرخ لبناء مقام السيدة النبوية ولبناء مجلس قاضى القضاة بمصر . وذلك قصارى ما أرخ له الشاعر من الأحداث العامة . . .

أما الشيخ محمد شهاب الدين فنراه مؤرخا لتولية الشيخ إبراهيم الباجورى مشيخة الجامع الأزهر . ولتولية الشيخ محمد العباسى المهدى منصب الإفتاء بمصر ولتولية الشيخ محمد عليش منصب مشيخة السادة المالكية .

ونراه مؤرخا للخديو عباس تولية منصب الإمارة أو قدومه من الآستانة أو سلامته من الريح الأصفر (الكوليرا) الذى كان بمصر فى سنة ١٨٤٩ ، أو وفاة زوجته .

ولكن الأحداث الخاصة لا تفوته فهو يهنىء صديقا له اسمه الشيخ جمعة

منصور بالزواج ويؤرخ لذلك ؛ كما يهنىء صديقه الخواجة عبود بن الخواجة[١] حبيب البحرى بزواجه ويجعل التهنئة فى تاريخ شعرى .

تلك كانت حالة الشعر فى ذلك العصر ، أما النثر فلم يكن أسعد منه حظا ولا أحسن قسما ، فالمحسنات البديعية فيه غالبة ، والتحفى باللفظ يستهلك المعانى ويطغى عليها ، وكأنما طوحت أحداث السياسة المتقلبة على الأمم العربية بسلامة الفطرة وصحة الملكة ، ففسد الذوق العربى لغلبة العجمة وفشو الاستعراب ، وذلك يتفق مع ما قرره ابن خلدون من أن الذوق لا يحصل للمستعربين من العجم[٢] . وبالطبع لم يكن أهل مصر فى ذلك الحين عجما ، ولكن غلبة الأعاجم عليهم فى عصور المماليك والأتراك لم تدع إلى اللغة سبيلا لحفظ ملكتها ، وتناصرت على ذلك عوامل أخرى من الجهل وندرة المطبوع فى العربية على حين امتلأت خزائن القسطنطينية بالكتب التركية وقلة الوسائل لتحصيل العلوم ، وقلة الاهتمام بديوان الإنشاء العربى الذى وجد فى الديوان التركى مزاحما قويا[٣] ولولا الأزهر الذى ظل قيما على اللغة العربية — بالرغم من طريقته التقليدية العتيقة — لوصلت تلك اللغة إلى أدنى مراتب الانحطاط .

كانت موضوعات النثر فى ذلك العصر تدور حول أمور منها : التأليف الذى كان فى لغة أقرب إلى الركاكة والعامية منها إلى القوة والفصاحة ، وكتاب (الجبرتى) فى التاريخ خير صورة لأسلوب التأليف فى ذلك العصر ، ففى بعض مواطن منه سجع يبدو عليه التكلف الممقوت ، وفى كثير من مواطنه تنزل فى التعبير إلى حد ارتضاخ اللهجة العامية الفاشية فى عصره واستعمالها أساسا لتأليفه .

ومن موضوعات النثر فن المقامة التى وجد الكتاب فيها رجوعا إلى

---

(١) كان من كتاب الإنشاء العربى فى عصرى محمد على وعباس الأول .
(٢) المقدمة ص ٥٦٢ — المطبعة الأدبية — بيروت .
(٣) مجلة المشرق سنة ١٩٠٥ عدد ٨ — ٢٤ .

عصر المقامات ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ القاضى الفاضل ولا مبلغ المتأخرين من بعده فى العصر العثمانى ، فقد أسرفوا فى الطريقة الفاضلية إسرافا بعد بهم عن سمو الغرض وشرف المعنى وسلامة التعبير .

وإذا كانت الطريقة الفاضلية نفسها تعد إنحدارا لطريقة ابن العميد والحريرى فإن طريقة العصر الذى نحن بصدد الحديث عنه كانت إنحدارا هائلا لطريقة منحدرة . . .

ومن كتاب المقامات فى ذلك العصر السيد أحمد البربير الدمياطى مولدا والشامى أصلا ، فله نسخة مخطوطة من المقامات محفوظة بدار الكتب الملكية ونظرة إليها تدل على ما وصل اليه أسلوب الكتابة فى وقته[١] .

أما الرسائل الخاصة أو الإخوانية فلم تكن إلا نماذج من رسائل العصر الأيوبى وعصر المماليك ، وغالى الكتاب فى الصناعة اللفظية حتى صار الأديب الأول فيهم هو من يفتن فى اصطياد جناس أو اجتلاب طباق أو استخدام تورية أو استعمال كناية ، وصارت القدرة على ذلك موضوعا للتندر وسببا للتمايز وانعقاد الشهرة ، وكلما كان الكاتب أقدر على السجع المجتلب واستعمال ألوان البديع كان أكثر اشتهارا وأعظم اقتدارا وأملك لناصية البيان ، وعلى هذا النحو اشتهر كتاب من طراز إسماعيل ابن جعمان والشيخ محمد الأمير من علماء الأزهر والشيخ حسن العطار . ورسائله المطبوعة بمصر مرارا تدل على أسلوبه والشيخ حسن قويدر الذى أخذ طريقة أستاذه العطار فى إنشاء الرسائل وإبراهيم مرزوق بك الذى جمع إلى الشعر التقليدى صناعة الرسائل المسجوعة فكان علما من أعلامها[٢] .

أما الرسائل الديوانية فقد انحطت فى ذلك العصر إلى درك لم تألفه اللغة

---

(١) توفى البربير فى أول العقد الثانى من القرن التاسع عشر .

(٢) تراجع ترجمته فى أعيان البيان لحسن السندوبى وفى تراجم أعيان القرن الثالث عشر لأحمد تيمور باشا .

فى عصور تأخرها . وقد كان لفشو اللغة العامية ومنافسة التركية أثر كبير فى ذلك . على أن هناك عاملا لا يجوز إغفاله وهو صيرورة الكتابة الديوانية بأيدى جماعة من كتاب الأقباط لم يختاروا لأدبهم وأساليبهم أكثر مما اختيروا لقدرتهم فى الإدارة وشهرتهم فى ضبط الديوان وعمل الحساب ، ومن هؤلاء المعلم جرجس الجوهرى وقد عاش صدرا من عصر محمد على ، والمعلم غالى الذى كان رئيس الكتاب فى عهد محمد على وابنه إبراهيم ، وكان من الطبيعى أن يحشد هذان الكاتبان فى ديوان الرسائل طائفة من أقباط مصر ونصارى الشام أمثال حنا الطويل والمعلم فرنسيس وأخيه المعلم فلتاءوس والخواجة رزق الله الصباغ وغيرهم من كتاب ذلك العهد .

إلا أن أمر هؤلاء لم يدم بعد مقتل المعلم غالى ، وخلف من بعدهم خلف راعى الأمراء فى اختيارهم اعتبار اللغة والأسلوب ، مما أعان على ظهور طائفة من كتاب الدواوين ممن لهم فى اللغة والإنشاء مكان ملحوظ .

فى هذا العصر المملوء بصور من البيان المنهوك ظهر عبد الله فكرى ، ولم تكن النفوس مستعدة بعد لانقلاب جديد بالرغم من بواعث الاصلاح التى كانت تمشى فى كل ناحية من الحياة المصرية .

والواقع أن التحرر من قيود ذلك القديم البالى والإنفلات من أصفاده لم يكن ليجىء دفعة واحدة ، فإن عوامل الزمن البطىء هنا لا بد من مراعاتها ، وإذا كانت النهضة العلمية تسير فى عصر محمد على وإسماعيل سيرا حثيثا فإن النهضة الأدبية كانت لا تسير فى محاذاتها لأن الغرض الأول من النهضة كان إلى طبيعة العلم أقرب منه إلى طبيعة الأدب ، فالطب والصيدلة والهندسة والصناعات والفنون الحربية والزراعة والرياضة والمعادن والسياسة والقانون كان لها نصيبها الموفور من البعثات [١] على حين لم يكن لرجال الترجمة إلا مكان ضئيل أعدهم

---

(١) البعثات العلمية فى عهد محمد على للأمير عمر طوسون .

لوظائف الإدارة المحض ، ولم يظهر من المترجمين فى عالم الأدب والكتابة إلا الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى كان إماما للبعثة المصرية فى باريس .

أما على مبارك باشا فقد كانت بعثته حربية ولكنه استطاع على الرغم من تعلمه الفنون العسكرية أن يدخل فى غمار الكتاب مؤلفا ومترجما .

وجد المترجمون سبيلهم إلى دواوين الحكومة . وكان بجانبهم قوم من الأدباء الذين مكنتهم ثقافتهم الأزهرية من الدخول فى زمرة الموظفين الذين دعت إليهم الضرورة لإصلاح الديوان العربى .

وكان عبد الله فكرى واحدا من هؤلاء الموظفين الذين مكنتهم معرفتهم بالتركية وثقافتهم الأزهرية من نيل وظيفة صغيرة فى الديوان .

وهنا لم يقنع هذا الموظف الصغير بما كان يعده غيره ظفرا وربحا ، ولكنه أخذ يقرأ فى الأدب العربى ، وأخذ يقرأ الرسائل والمقامات ، وهى زاد كان لا بد منه للأديب .

ومن عجب أن النهضة الأدبية فى ذلك العصر لم تقو على الرجوع مرة واحدة إلى أسلوب الترسل الذى كان ميزة العصر الأموى والصدر الأول من العصر العباسى ، ولم تستطع رسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ أن تطبع ذلك العصر بطابعها ؛ لأن فساد الأساليب وضعفها كان الصفة الغالبة على الكتابة حينذاك ، فلم يكن من السهل الخروج عليها جملة واحدة ، فكانت هناك رجعة إلى طريقة القاضى الفاضل أو إلى طريقة ابن العميد قبلها . وهما طريقتان وجد كتاب عصر إسماعيل وتوفيق فيهما غاية مايصبو إليه الأديب .

ولم يسلم من ذلك حتى رجال البعثات الذين قامت على أكتافهم أسس النهضة ، فعلى مبارك باشا جرى على طريقة السجع فى كثير مما كتب ، والشيخ رفاعة رافع الطهطاوى لم يتخلص من السجع جملة وهو يكتب كتابه فى رحلته إلى باريس وعنوانه (تخليص الأبريز إلى باريز) . حتى العنوان نفسه لم يسلم

من السجع الذى امتازت به عناوين الكتب فى عصر المماليك ومن بعدهم . وتكاد تكون عناوين مؤلفاته مسجوعة كلها . وهى ظاهرة تدل على ما كان للسجع من أثر فى النفوس . ومن كتبه (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) و (مواقع الأفلاك فى أخبار تلماك) و (المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين) . وهى عناوين تذكرنا بأمثال العناوين الآتية (الإحاطة فى أخبار غرناطة) لابن الخطيب و (نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى) (ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى) و (الدرارى فى أبناء السرارى للسيوطى) وكثير غيرها .

فى هذا الجو نشأ عبد الله فكرى ، فلم يكن من السهل عليه أن يخرج على مألوف وقته . فاهتم بالرسائل والمقامات . واهتم بالسجع والمحسنات . واهتم بشعر المديح . وفى هذا الباب من الشعر كان أكثر ما نظم . أما حكم بعض الأدباء عليه بأنه كان يصف الآنية والأزهار ويشبه بالنفائس [١] فهو حكم فيه كثير من التعميم . والتعميم فى الحكم بالحادثة الفردية أو الحادثتين ليس طريقا إلى إقامة الأحكام ونصب الموازين . فإن ديوان عبد الله فكرى كله ليس فيه إلا بيتان فى الورد [٢] وبيتان فى الشقائق [٣] وبيتان فى نار موقدة [٤] فى فحم حوله رماد .

ليس وصف الأزهار والآنية قدراً كبيراً فى شعر عبد الله فكرى باشا ، ولكنه على كل حال يصور لنا — على تفرد الأمثلة فيه — أثر الروح التى إنحدرت إلى شعراء ذلك العصر من أيام المماليك .

أما التاريخ الشعرى فقد أكثر منه عبد الله فكرى كثرة تدل على غلبة روح العصر عليه . ولم لا يكثر منه ويفتن فيه وقد كان قبله الشيخ محمد

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٨١ .
(٢) الآثار الفكرية ص ١٧ .
(٣) الآثار ص ١٧ .
(٤) الآثار ص ١٤ .

شهاب الدين شاعر الخديو عباس الأول يستعمله وينال به الحظوة عند مولاه ، والسيد أبو النصر المنفلوطى شاعر إسماعيل يستعمله ويتقرب به إلى أميره ؟؟.

ولقد كان عبد الله فكرى موفقا فى تواريخه الشعرية إلى حد كبير . فالألفاظ منضدة لا تحس فيها أقحاما ، والأسلوب سهل مطاوع لا ترى فيه تكلفا واعتسافا ، ولا يحوجه عمل التاريخ إلى ارتكاب ضرورة شعرية قبيحة كما نجد فى بعض التواريخ .

ومن أحسن تواريخه الشعرية ما نظمه مؤرخا زواج (الأمير حسين كامل) — السلطان حسين فيما بعد — بقوله :

بشرى بطالع سعد ... بالبشر واليمن آتى
تزف للبدر شمس ... تسمو على النيرات
بخير فأل سعيد ... يومى لطول حياة
يقول والفأل حق ... عن سيد الكائنات
أرخ لنحو حسين ... تزف عين الحياة

ومجموع ما تحته خط ١٢٨٩ وهو يوافق تاريخ السنة الهجرية التى حدث فيها القران .

ومن تواريخه اللطيفة ما أرخ به لوفاة عثمان أدهم أخى إبراهيم باشا أدهم[1] ودفنه مع والده فى قبر واحد :

فى رحمة الله من أبلت منيته ... شبابه الغض واستبقت محامده
وحل قبر أب بر نؤرخه ... عثمان آنس فى الفردوس والده

ومجموع الشطر الثانى من البيت الثانى ١٢٨٩ ، وهو تاريخ وفاة المؤرخ له . ويظهر أن سنة ١٢٨٩ الهجرية المقابلة لسنة ١٨٧٢ الميلادية كانت مملوءة بالأحداث السعيدة التى رأى المترجم تاريخها شعرا . فقد تزوج فيها الأمير حسن

(١) كان إبراهيم باشا أدهم رئيساً لديوان المدارس فى عهد محمد على ، وناظرا للمعارف فى أول عهد إسماعيل باشا سنة ١٨٦٣

شقيق الأمير حسين . وتزوج الأمير طوسون باشا . وعاد فيها الخديو إسماعيل من رحلته إلى القسطنطينية ، وهى الرحلة التى كسب فيها ود الحكومة التركية بعد أن خذلته حكومات أوروبا واشتدت ورطته المالية .

وكان عبد الله فكرى فى ذلك العام وكيلا لديوان المدارس وعلى باشا مبارك ناظراً للمعارف . فاقترح الوزير على الوكيل عمل تاريخ شعرى يكتب على باب الوزارة فيما أقيم من زينات بسبب تلك الرحلة السياسية الناجحة . فكتب الوكيل الأبيات الثلاثة الآتية :

إلى مصره عاد الخديوىُّ بالمنى ... وباليمن والإقبال والله حارس
وباهت به فيمن تباهى مدارس ... له بالندى والجود فيها مغارس
وقال لسان الحال فيها مؤرخا ... بعودة إسماعيل سر المدارس

والتاريخ الهجرى سنة ١٢٨٩ يحتويه الشطر الأخير .

وفى ديوان عبد الله فكرى الذى وصل إلينا فى « الآثار الفكرية » طائفة من التواريخ الشعرية التى كان يجيدها المترجم ويحسن الدخول بها إلى قلوب الأمراء والوزراء كما كانت تقتضيه طبيعة ذلك العصر .

إلا أن لتلك التواريخ الشعرية قيمة أخرى . فعلى ضوئها يهتدى المؤرخون فى تعيين السنوات التى حدثت فيها أحداث أو جدت شئون أو انتصر جيش أو أقيم بناء . وهى وسيلة للتذكير بالتواريخ التى كثيراً ما تند عن الذاكرة ، وتعيا على الحافظة .

فسقوط سباستبول فى يد الأتراك وفتح القرم وهزيمة الروس فى تلك الموقعة قد ينسى المرء تاريخه لكثرة ما قام بين الترك والروس من أمور ونبغ بينهما من شئون . ولكن بيت عبد الله فكرى فى مطلع قصيدته البائية يذكرنا دائما بالتاريخ الزمنى لهذا الحادث العظيم وهو سنة ١٢٧٢ هـ المقابلة لسنة ١٨٥٥ م .

قال عبد الله فكرى :

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن بفتح القرم لان لنا الصعب

ومجموع حروف كل مصراع من هذا المطلع السهل هو ١٢٧٢ وهو تاريخ السنة الهجرية التى سقطت فيها شبه جزيرة القرم فى يد أبناء عثمان .

ورجعة إلى جداول الموافقات بين التاريخين الهجرى والميلادى تدلنا على السنة الميلادية المقابلة وهى سنة ١٨٥٥ .

وقد يكون التاريخ الشعرى بالسنة الميلادية فيجنب المرء أعباء المقابلة بين التاريخين . وقليلا ما لجأ عبد الله فكرى إلى التاريخ الميلادى فى تواريخه الشعرية . وفى الحق إن ديوانه لايضم إلا تاريخا ميلاديا واحدا لوفاة دور بك المفتش بوزارة المعارف ، وهو رجل سويسرى خدم التعليم فى مصر ، وكان زميلا لعبد الله فكرى فى عضوية تروميسيون المعارف الذى صدر الأمر بتشكيله فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٠ ، إلا أن المنية لم تمهله فمات فى العام نفسه بعد أن كان مرشحا لعضوية المجلس العالى للمعارف ، فرثاه زميله عبد الله فكرى ببيتين تضمنا تاريخاً شعريا ميلاديا . والواقع أنه لم يكن رثاء ولكنه تكليف ممن « يطاع أمره » والبيتان هما :

سق الغيث قبرا ضم شخصا تضمنت معارف مصر منه أسنى العوارف

فلما مضى قال الثناء مؤرخا قضى عمره (دور) بطيب المعارف

ومجموع الشطر الأخير ١٨٨٠ وهو التاريخ الميلادى للوفاة .

حكمة الوالد الشاعر

وجه عبد الله فكرى باشا إلى ولده أمين فكرى وهو طالب بالمدرسة الأبيات الآتية :-

إذا نام غرّ فى دجى الليل فاسهر وقم للمعالى والعوالى وشمر

وخل أحاديث الأمانى فإنها علالة نفس العاجز المتحـــير
وسارع إلى ما رمت مادمت قادرا عليه فإن لم تبصر النجح فاصبر
ولا تأت أمراً لا ترجى تمـامه ولا مورداً ما لم تجد حسن مصدر
وأكثر من الشورى فإنك إن تصب تجد مادحا أو تخطىء الرأى تعذر
ولا تستشر فى الأمر غير مجرب لأمثاله أو حازم متبصر
ولا تبغ رأيا من خئون مخادع ولا جاهل غر قليـل التدبر
فمن يتبع فى الخطب خدعة خائن يعض بنان النادم المتحسر
ومن يتبع فى أمره رأى جاهل يقده إلى أمر من الغى منكر
كمن يهتدى فى جوف ظلماء داجر بأكمه فى نور الضحى غير مبصر
وكم من نصوح أبصر الخلف فاثنى يبيع الهدى بالغى غير مفكر
ولا تصغ فى ود الصديق لكاذب نموم وإن يعرض لك الشك فاخبر
ولا تغترر تندم ولا تك طامعا تذل ولا تحقر سواك تحقر
وعود مقال الصدق نفسك وارضه تصدق ولا تركن إلى قول مفترى
ودع عنك إسراف العطاء ولا يكن لكفيك فى الإنفاق إمساك مقتر
ألا إن أوساط الأمور خيارها مقال نبى عن هدى الله مخبر
وألأم هذا المـال مال تصيبه بظلم وتعطيه عطاء المبذر
وأكرمه مال أصيب بحقه وأنفق فى نهج من الحق نير
وأشقى الورى من باع أخراه ضلة بدنيا سواه وهو للغبن مشترى
وخير عباد الله أنفعهم لهم كما جاء فى قول النذير المبشر
فكن راغبا فى الخير ما عشت وانتصب
لنفع الورى ما اسطعت والشر فاحذر
ولا تقف زلات العبـاد تعدها فلست على هـذا الورى بمسيطر
ولا تتعرض لاعتراض عليهم دع الخلق للخلاق تسلم وتؤجر

وهـذه القصيدة الأبوية الوعظية تذكرنا بقصيدة ابن سعيد المغربى التى كتبها لولده « على » حينما أراد النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة . فكلتا

القصيدتين من والد إلى ولده . وكلتا القصيدتين فى النصح والإرشاد والحكمة، وكلتا القصيدتين تشتمل على طائفة من النصائح العامة التى تنفع المرء سواء أكان يطلب العلم والدرس كأمين فكرى أم يغترب فى البلاد كعلى بن سعيد المغربى .

وفرق ما بين قصيدتى عبد الله فكرى وابن سعيد المغربى أن هذا الشاعر الأندلسى لم يكتف بالشعر وحده فى نصيحة ولده ، بل أضاف إلى الشعر صفحات من النثر تدل على علو طبقة الشاعر فيه .

ولا بأس فى هذا المقام من إيراد بضعة أبيات من قصيدة لابن سعيد المغربى ليتضح قرب ما بين الشاعرين من الفكرة :

قال ابن سعيد :

كم من صديق مظهر نصحه ... وفكره وقف على عثرتك
إياك أن تقربه إنه ... عون مع الدهر على كربتك
واقنع إذا مالم تجد مطمعا ... واطمع إذا أنعشت من عسرتك[1]
وانم نمو النبت قد زاره ... غب الندى واسم إلى قدرتك
وإن نبا دهر فوطن له ... جأشك وانظره إلى مدتك
فكل ذى أمر له دولة ... فوف ما وافاك فى دولتك
ولا تضيع زمنا ممكنا ... تذكاره يذكى لظى حسرتك
والشر مهما اسطعت لاتأته ... فإنه حوز على مهجتك

والفكرة هنا هى فكرة الأب الذى يزود ولده بما يراه عدة على الزمان وطريقا إلى النجاح فى الحياة . وقد يختلف الشاعران فى الطريق تبعا لاختلاف ظروف الزمان والمكان . فابن سعيد يوصى ولده بعدم احتقار صاحب الرتبة فإنه ينفع فى الغربة . ولكن عبد الله فكرى يوصى ولده بعدم احتقار «الغير» مطلقا لئلا يعرض نفسه للاحتقار .

---

(١) عن نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٤٩٤ .

وبيت ابن سعيد هو :

ولا تكن تحقر ذا رتبة فإنه أنفع فى غربتك

وبيت عبد الله فكرى هو :

ولا تغتر تندم ولا تك طامعا تذل ولا تحقر سواك تحقر

وللأستاذ العقاد فى هذه القصيدة الحكمية رأى نرى من الإنصاف للحق أن نناقشه فهو يقول فيها (فهذه وأشباهها نصائح معلم وليست وحى شاعر . ولا نعرف بين كبار الشعراء فى العالم كله واحدا صرف إليها شعره ، وجعلها من أغراض فنه)[1] .

فما دخل (كبار الشعراء فى العالم كله) فى ميدان هو بشعراء العربية أشبه ؟. ولقد نظم كثير من شعراء العربية مثل هذه القصيدة الفكرية فى عصور مختلفة فما حط ذلك من شاعريتهم ولا نقص من قدرهم .

ولقد أوردت أبياتا من قصيدة ابن سعيد المغربى تزكية لقضية أرى من الحق أن أدافع عنها . فإذا احتج محتج بأن المغربى من شعراء العصور المتأخرة نسبيا فإن الجواب عندنا حاضر عتيد . وهو أن بشار بن برد من شعراء القرن الثانى ترك لنا أبياتاً فى المواعظ والحكم فيها كثير من وحى الشاعر . إذا لم تكن كلها وحيا . وأبيات بشار بن برد هى :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم

وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم

وخل الهوينى للضعيف ولا تكن نؤوماً فإن الحزم ليس بنائم

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم

وأدن على القربى المقرب نفسه ولا تشهد الشورى أمرأً غير كاتم

فإنك لا تستطرد الهم بالمنى ولا تبلغ العليا بغير مكارم

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٨٢ .

فهذه أبيات من وحى الشاعر لا من نصائح المعلم ، ولم يعب بشارا أن جعلها من أغراض فنه، كما لم يعب عبد الله فكرى أن جعل النصيحة من أغراض فنه .

على أن هناك وجها آخر للدفاع عن عبد الله فكرى ، فليس له فى الحكمة إلا هذه القصيدة الرائية . فالحكم بأن للمترجم « قصائد فى الحكمة » فيه من التعميم فى الأحكام ما لا يجوز للناقد المنصف أن يستعمله ولا أن يتخذه عدة نقده .

وقول الأستاذ العقاد إن (هذه القصائد هى ألصق بوصايا المتأخرين ونصائحهم منها بالحكم المطبوعة)[1] هو قول يرده ما جاء فى أبيات بشار بن برد السابقة ، وهو من فحول القرن الثانى وليس من المتأخرين .

ووجه ثالث للدفاع عن عبد الله فكرى ، فلم يقل أحد إنه كان شاعرا (حكيما) ولم يقل أحد إن (حكمة) عبد الله فكرى هى حكمة أبى تمام والمتنبى فى الإسلام أو حكمة زهير فى الجاهلية ، ولكننا لا نعدو الحق إذا قلنا أن حكمة عبد الله فكرى فى رائيته لا تقل عن حكمة بشار فى ميميته ، وأن وحى الشاعرية فى أبيات فكرى هو وحى الشاعرية فى أبيات بشار .

على أن الحكمة — سواء لبست ثوب النصيحة والموعظة أو ثوب الحكمة المطبوعة — ليس من الضرورى أن تكون « وحيا شعريا » ، ولقد فرق النقاد قديما بين الشاعر والحكيم ، حتى قالوا إن المتنبى وأبا تمام حكيمان والشاعر البحترى .

فالمقابلة بين (نصائح المعلم ووحى الشاعر) هى مقابلة فى غير موضعها ولا بابها ، وقد يكون المعترض على حق لو أنه قابل بين نصائح المعلم وحكمة الحكيم .

---

(١) ص ٨٢ من شعراء مصر .

أغراض من الشعر :

وليس ديوان عبد الله فكرى كبيرا فى حجمه إذا قيس بما خلفه من ثروة نثرية واسعة ، وهو على صغر حجمه تغلب عليه أشعار المديح وما يمت إليها من شعر التهنئة والشكر ، وقد فرضت عليه صلته ببيت إسماعيل أن يكون شاعرا له وللخديو توفيق الذى كان المترجم له مشرفا على تعليمه وتعليم أخويه الأميرين حسين كامل وحسن .

والحق أن مدائح عبد الله فكرى لم تخرج على مسنون عصره مما كان ينظمه الشعراء عادة أمثال الشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر المنفلوطى من شعراء مصر وشاكر شقير وسليمان الصولة والشيخ إبراهيم الأحدب من شعراء الشام .

ولا تصادف فى تلك المدائح جميعا تلك الشاعرية الجبارة التى كانت توحى إلى أمثال المتنبى وأبى تمام والبحترى بما خلفوا لنا من روائع المدائح ، ولكنها فى مجموعها تبدو عليها مسحة من العناية اللفظية التى كانت غاية الشعراء فى ذلك الحين.

وخير قصيدة فى ديوان عبد الله فكرى تمثل طريقة عصره هى قصيدته الهائية التى يهنىء بها الخديو توفيقا حينما تولى عرش مصر ، فهى مشحونة بألوان من البديع والمحسنات اللفظية ومزدحمة بالغلو والمبالغة فى المديح ، وهى سمات كان الشعر العربى يزهى بها فى عصور تأخره .

اسمعه يقول فى الممدوح :

ذو همة دون أدنى شأوها قصرت ... غايات من رام فى أمر يدانيها

وراحة لو تحاكيها السحائب فى ... فيض الندى هطلت تبرا غواديها

يزهو بها قلم سام يسوس به ... أمر الأقاليم نائيها ودانيها

يجرى بما شاء من حكم ومن حكم ... يصبو لحسن معانيها معانيها

ولا تنس فى البيت الأخير الجناس اللفظى بين حكم وحكم ومعانيها ومعانيها ولا تنس المبالغة والإغراق فى البيت الثانى .

غير أن الإنصاف يقتضينا أن نقرر أن شعر عبد الله فكرى لم يكن كله على سنن عصره والعصر الذى قبله ، وإن نظرة تلقى على ديوان الشيخ شهاب الدين ودواوين معاصريه من عهد محمد على وعباس الأول وسعيد لتجيز لنا أن نقول إن شعر عبد الله فكرى قد تحرر قليلا من قيود هذه الطبقة ، وإنه كان ينزع نحو سبيل وجدت فى محمود سامى البارودى دليلها الأول ورائدها الجرىء .

ومما يتصل بشعر المديح عند المترجم له شعر الاستعطاف والشكر ، وله فى ذلك قصيدتان : الأولى رائية وقد نظمها عقب الإفراج عنه فى حوادث الثورة العرابية وكان قد التمس الإذن بمقابلة الخديو توفيق فلم يؤذن له ، وتمتاز هذه القصيدة بروح من الصدق والإخلاص تشيع فى أبياتها ، وأكبر دليل على صدقها أن الخديو فتح قلبه لها حينما عرضت عليه ، كما فتح صدره لصاحبها بعد ذلك فأذن له بالمقابلة وأقبل عليه بعد إعراض عنه .

وأى قلب لا يلين بعد أن يسمع مثل هذه الأبيات :

ملكت فأسجح وامنح العفو تبتغى ... زكاة لما أولاك ربك أو شكرا
وهبنى من تقبيل يمناك راحة ... تمنيتها أرجو بها اليمن واليسرا
وحسبى ماقد مر من ضنك أشهر ... تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة ... ويعدل منها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة أننى ... أكابد فى أيامك البؤس والعسرا
وأحرم من تقبيل كفك بعد ما ... ترامت بى الآمال مستأنسا برا
ولى فيك آمال ضمينى بنجحها ... وفاؤك لا أرجو سواك لها ذخرا
وقد مر لى فوق الثلاثين حجة ... بخدمة هذا الملك لم آلها صبرا

أما القصيدة الثانية الميمية فهى لشكر الخديو على إذنه بالمقابلة ، وإعادة معاشه إليه وتفضله بالعفو .

وقد افتتحها بالغزل جريا على طريقة الأقدمين ومن حذا حذوهم من المتأخرين . ثم تخلص منه إلى المدح ووصف الثورة العرابية التى نكبت بها البلاد ومضى

من ذلك إلى التنصُّل مما رمى به وهو المتقلب فى أعطاف ذلك البيت الكريم المادح له بكل منضد فى جيد الزمان منظم .

أما غزله فلم يصطنع القول فيه إلا مجاراة وتقليدا . ولم يجر فيه على أصل من الطبع أو حر من السجية . على أن ما روى له من الغزل ليس إلا أبياتاً قليلة هنا وهناك . ولعله أراد أن يثبت بها القدرة على الشعر فى كل غرض .

ولنشأة عبد الله فكرى وبيئته أثر فى ندرة الغزل فى شعره . فهو صوفى فى أول نشأته ، وهو متدين طوال حياته ، وهو معلم أبناء البيت المالك ومراقب دروسهم ، وهو فى خدمة التعليم والمعارف شطرا من عمره . وفيه فوق ذلك وقار فى السمت ، ومهابة فى الطلعة ، وجد ورصانة فى الهيئة . وكل ذلك لا يعين على الغزل ولا يسمح به .

وأبياته القليلة فى الغزل تبدو فيها الصنعة البعيدة من كل عاطفة . إلا أبياتا له فى « المجون » فيها من صدق الإحساس ما يدل على الإذعان لحكم البيئة والظروف .

وإلا فأين من قوله فى هذا الغزل المطبوع :

وهيفاء من آل الفرنج حجابها ... على طالبى معروفها فى الهوى سهل
تعلقتها لا فى هواها مراقب ... يخاف ولا فيها على عاشق بخل
إذا أبصرت من ضرب باريز قطعة ... من الأصفر الابريز زانت بها النعل
هنالك لا هجر يخاف ولا جفا ... لديها ولا خلف لوعد ولا مطل
أتيت كما شاء التصابى رحابها ... وما كان لى عهد بأمثالها قبل
فلما تعارضنا الحديث تعرضت ... لوصل ومن أمثالها يطلب الوصل
فرحت بها فى حيث لا عين عائن ... ترانا ولا بعل هناك ولا أهل
وبت ولى سكران من خمر لحظها ... وراح ثناياها ومن خدها نقل
وقمت ولم أعلم بما تحت ذيلها ... وإن كان شيطانى له بيننا دخل

أين من هذا قوله فى الغزل المصطنع :

وعارف بفنون الطب تجربة وخبرة ليس يخفى عنه ما التبسا
وافى ليبلو ما أشكو بجس يدى حينا وأرسلها حينا وقد عبسا
وقال داء هوى يأبى الشفاء فإن أهملته زاد أو داويته انتكسا

أما الرثاء فلم نظفر له ببيت واحد فيه . وبالطبع قد جرى على أصدقائه وأقربائه حكم القدر . فما سمعنا له شعرا فى رثائهم ، حتى لقد مات حفيد له من ولده أمين باشا فكرى تجاوزت سنه عشر سنين . فما عرفنا أنه رثاه بأبيات . ومات قبل هذا الحفيد أخ له (للحفيد) ، فما أثر عنه بيت ، ولا روى فى رثائه شعر .

ومن الناس من تعقد الأحزان ألسنتهم ، وتلجم المصائب أفواههم ، فلا ينطقون ، ويظهر أن عبد الله فكرى كان من هؤلاء ، حتى لقد كان يجد فى ذكر الأموات إثارة للأشجان وتحريكا للأحزان ، وهو لا يحب تهييج الجرح وإثارة القرح .

ومما يدل على ذلك ما كتبه إلى صديقه الشيخ عبد المجيد الخانى الدمشقى حين أصيب فى حفيده الثانى :— (... أيها الأخ العزيز المشفق ، إنى لا أحب تجديد المقال فى هذا المقام بكلمة أو حرف فى تعزية أو تسلية ضمن خطاب إلى أو لولدى ... كراهة أن يحرك ذلك ما عساه أن يكون فى بعض سكون) .

وإلا فكيف نعلل خلو ديوان عبد الله فكرى من بيت واحد للرثاء على كثرة ما نظم فى أغراض مختلفة .

أما البارودى صديق فكرى ومعاصره فقد كان يجد فى المرثية يرسلها متنفسا لصدره ومنفرجا لهمه ، حتى لقد رثى والده وهو صبى بقصيدته التى مطلعها :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى طاح الردى بشهاب الحرب والنادى

ناثر عصره :

ذكر المغفور له جورجى زيدان عبد الله فكرى فى عداد شعراء عصره ولكنه قدمه بهذه الجملة (هو من نوابغ المصريين فى الأدب والشعر) وترجم له الشيخان الجليلان أحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى بقولهما (هو الكاتب الشاعر الأديب) .

وذكره المرحوم أحمد فارس الشدياق فى كتابه « سر الليال » بقوله (وممن برع فى هذا العصر وحق له به الفخر فى الإنشاءات الديوانية وهى عندى أوعر مسلكا من المقامات الحريرية ، الأديب الأريب الفاضل العبقرى عبد الله بك فكرى المصرى ، فلو أدركه صاحب المثل السائر لقال : كم ترك الأول للآخر فسبحان المنعم بما شاء على من شاء ، ومن أجل تلك النعم الإنشاء) .

وقال عنه المرحوم الشيخ حسين المرصفى فى الجزء الثانى من كتابه المشهور « الوسيلة الأدبية » (إذا قرأت متأملا حق التأمل ما نقلناه لك من إنشاء ذوى العصور المتتالية عرفت كيف اختلاف مذاهب الناس فى الإنشاء . وإذا يسلك بك التوفيق إلى اختيار طريقة تناسب أحوال بنى وقتك وتوافق أفهامهم إذا دعتك داعية للإنشاء المصنوع ، هذا وأنفع ما أراه ينبغى لك أن تتخذه دليلا يرشدك إلى كل وجه جميل من وجوه الفنون التى تحاول فيها أن تكتب الكتابة الصناعية المناسبة لوقتك الذى تأمل أن تعيش فى رضا أهله عنك واعترافهم بظهور ما يعود منك عليهم نفعه منشآت الأمير الجليل صاحب الوقت الذى لو تقدم به الزمان لكان له بديعان ، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان ، عبد الله فكرى بك ...)

وقال عنه الأب لويس شيخو اليسوعى فى كتابه « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » (وكان المترجم بارعا بالنظم والنثر راسخ القدم فى بلاغة التعبير وكان بالخصوص إماما فى الإنشاءات الديوانية) .

ولقد عاصر عبد الله فكرى طائفة من الأدباء الكتاب أمثال السيد صالح مجدى بك وأبو السعود أفندى محرر جريدة « وادى النيل » والشيخ حمزة فتح الله والشيخ حسين المرصفى والشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى والشيخ على الليثى وأحمد فارس الشدياق صاحب « الجوائب » .

ولقد وجد هؤلاء الأدباء فى عبد الله فكرى الكاتب الأول الذى يوافق عصرهم ويلائم زمنهم فاعترفوا بإمامته ورضوا عن زعامته . ووجدوا الفخر كل الفخر فى محاكاته والأخذ عنه والاتصال به .

وشهادة المرصفى هنا لها قدرها من ناحيتين : الأولى الاعتراف بالأستاذية والتقديم لعبد الله فكرى ، والثانية أن الطريقة (الفكرية) التى كانت مثلا أعلى يوصى باقتدائه لم تكن إلا مناسبة لوقتها ، وأنها كانت على ذوق العصر ، وأن المرصفى كان مدركا لما فى هذه الطريقة من صناعة إلا أنه هو نفسه كان جاريا عليها مجاراة لوقته وأملا أن يعيش هو أيضا فى رضا أهله عنه .

ومن الحق أن نقول إن عبد الله فكرى لم يجر فى نثره كله على طريق (الكتابة الصناعية) التى قوامها السجع والمحسنات ، وإيثار جانب اللفظ على المعنى . فقد كانت له كتابات مرسلة ولكنها كانت على قلتها دليلا على ظهور حركة التحرر من قيود النثر القديم .

وبالطبع لم يكن عبد الله فكرى داعيا إلى التحرر وهو محيى الطريقة « الفاضلية » وإمامها . وقد عز عليه أن يتخلى عن لوائها إلى طريقة أخرى كان الدعاة لها من غير مدرسته .

لهذا ظل محتفظا بإمامة الطريقة فى رسائله ومقاماته وخطبه والرسائل التى كتبها على لسان الخديو إسماعيل إلى الملوك والأمراء .

ولم يتحرر من آثاره فى السجع والمحسنات إلا بيانه فى مجلس النواب ، ورسالته إلى الوزير رياض باشا من جوتنبرج يصف له أعمال الوفد المصرى

فى مؤتمر المستشرقين . على أن هذه الرسالة الطويلة لم تسلم مقدمتها من السجع وخاصة وهو فى مقام الدعاء والولاء للخديو توفيق .

أما بيانه فى مجلس النواب فقد سلم سلامة تامة من كل حلية لفظية ، وأرسل فيه الكلام إرسالا فى صدق عرض وصحة سرد وحسن قصد ، وخلوص نية فى خدمة التعليم .

وإذا كانت الأحكام تتضح بالمثال فما أجدرنا أن نسوق من بيانه هذه السطور ففيها الدليل على ما نقول : (ومن هذا يتضح لحضراتكم أنه لا يعوقنا عن القصد شىء ، فالمعدات الممكنة حاضرة ، والأسباب اللازمة قريبة المنال ، فما يلزمنا إلا العزم والسرعة والإقدام ، حتى نصل الغاية التى أدركها الذين نروم مجاراتهم فى هذا السبيل ، ولا نطمعن فى إدراك هذه الغاية بغير ثبات واجتهاد فإن من يشتهى أن ينال الشىء بدون معداته كمن يشتهى أن يتناول التمر بيده وهو مضطجع فى مرقده ، والذى يبشرنا بنجاح الآمال أننا رأينا التفات حضراتكم لهذا الأمر وتوجه خواطركم إلى هذا الموضوع فلم يبق إلا الجد والاستمرار وتقرير الطريقة المستقيمة لتعميم المكاتب فى البلاد من غير مبالاة بالمتاعب ولا نظر فى النفقات والمصاعب) .

أما الكاتب الذى استطاع أن يتحرر من السجع والمحسنات جملة فهو الشيخ محمد عبده وقد كان معاصرا لعبد الله فكرى .

بدأ الشيخ محمد عبده حياته الكتابية على طريقة العصر من السجع ، ولكنه لم يسرف فى المحسنات البديعية إسراف أهل زمانه ، ولعل ذلك مما سهل عليه آخر الأمر أن يتخلص جملة من قيودهم .

ورسائله الأولى فى جريدة « الأهرام » مملوءة بالسجع الذى كان منتهى البراعة فى ذلك الزمان ، فلما تولى الشيخ إدارة المطبوعات فى وزارة الداخلية وتحرير الوقائع المصرية بدأ ينحو فى أسلوبه منحى الترسل المطلق وأول مقالة له فى « الوقائع » نشرت سنة ١٨٨٠ وليس فيها سجعة واحدة .

وهكذا استطاع الشيخ محمد عبده أن ينتقل بالكتابة من حال إلى حال. وقد مكنته شبيبته من ذلك الانتقال الذى لم يجد فيه غضاضة، بينما عبد الله فكرى خب فى الطريقة القديمة ووضع واشتهر بها واعترف له بالإمامة فيها فكان من الصعب عليه أن يتحرر من قيود الكتابة التى فرضها على نفسه حتى بلغ من العمر خمسين.

على أن رسالته إلى رياض باشا وبيانه فى مجلس النواب يمثلان بعض النزوع منه إلى التحرر من الطريقة القديمة، ولعل ذلك منه كان على سبيل التجربة، ولكنه لم يستطع أن يسير مع المجددين حفاظا منه على مذهب ارتضخه حقبة من السنين.

ولهذا كان بحق وظل بحق إمام الكتاب فى عصره حتى أسلم الروح لربه فترك لغيره أعباء التجديد وبقى هو إمام المحافظين.

آثار عبد الله فكرى الأدبية

(١) إتحاف المشتاق بأخبار العشاق . لم يتم تأليفه ولم يطبع .

(٢) آثار الأفكار ومنثور الأزهار . طبع منه تسع ملازم بمجلة روضة المدارس .

(٣) تعليقات على منظومة أحمد خيرى باشا فى المواعظ والحكم . لم يطبع .

(٤) الرحلة البعلبكية . وهى رسالة صغيرة تمثل أدب الرسائل الخاصة . كتبها إلى صديقه الشيخ عبد المجيد الخانى من أفاضل علماء دمشق فى وقته ، وأرسلها إليه من بعلبك مداعبا . وفى هذه الرسالة ما فيها من فكاهة المترجم له وخفة روحه ، طبعت على حدة ، ونشرت فى الآثار الفكرية . وقد طبعت على الحجر بوساطة الأديب أحمد القحماوى النابلسى من أصدقاء المترجم له .

(٥) الرحلة المكية . طبعت على حدة سنة ١٣٠٣ هـ . ونشرت فى الآثار الفكرية .

(٦) رسالة فى المقارنة بين الوارد فى نصوص الشرع والمقرر فى علم الهيئة الفلكية . وقد جعلها على سبيل المحاورة بين فقيه وعالم من علماء الهيئة ليصل من ذلك إلى التوفيق بين الشرع والعلم . وهى محاولة تدل على نزعة تجديدية حكيمة من المترجم له . وفى الخزانة التيمورية رسالة مخطوطة بقلم محمد أفندى فنى عنوانها « سبائك الذهب التبرى فى إلغاء كلام عبد الله باشا فكرى » ردا على الرسالة المذكورة . وقد نشرت رسالة المترجم له فى صحيفة وادى النيل وكتاب الآثار الفكرية ومجلة روضة المدارس ص ٢٣ سنة ١٢٩٣ هـ

(٧) رسالة فى الدينار . لم تطبع .

(٨) رسالة فيما اتفق لفظه واختلف معناه من بلاد مصر ، وهى مخطوطة لم تطبع .

(٩) شرح بديعية الشاعر محمود صفوت الساعاتى . لم يطبع .

(١٠) شرح ديوان ابن النبيه ، وهو من شعراء مصر فى القرنين السادس والسابع الهجرى الذين اتصلوا بالأيوبيين ومدحوهم . طبع بالمطبعة العلمية سنة ١٣١٣ هـ .

(١١) عجالة البيان على ديوان حسان ، وهو شرح لديوان حسان بن ثابت شاعر الدعوة الاسلامية ، ولم يكمل منه إلا شرح القصيدة الأولى الهمزية التى مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء باطنها خلاء

وقد قدم هذا الشرح إلى مؤتمر المستشرقين بمدينة استوكهلم ولم تساعد الأيام شارحه على إتمام شرحه ، فقد توفى بعد عودته من المؤتمر بقليل .

(١٢) الفصول الفكرية للمكاتب المصرية . وهى رسالة فى نحو اللغة العربية ، طبع بمصر سنة ١٣٠١ ، سنة ١٣٠٤ ، سنة ١٣٠٧ هـ .

(١٣) الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية ، وهى فصول للمطالعة بالمكاتب والمدارس . بعضها بقلم المترجم له وبعضها بقلم غيره ، ولكنه تصرف فيها بما يناسب حال تلاميذ المدارس . وقد كانت تقرأ فى مدارس مصر قبيل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ . طبعت على الحجر سنة ١٣٠٠ هـ . وفى مطبعة التمدن سنة ١٣٢٠ هـ فى ٩٨ صفحة ؛ وفى المطبعة الميمنية سنة ١٣٣٣ هـ ، وهناك طبعة فى سنة ١٣١٠ هـ على هامشها حاشية الشيخ عبد الله العشماوى على الآجرومية . وأحسن طبعاتها وأصحها ضبطا للآيات والأحاديث تلك التى طبعت فى مطبعة المعارف بالفجالة سنة ١٣٣٢ هـ .

(١٤) المقامة الفكرية فى المملكة الباطنية . مترجمة عن اللغة التركية من بعض اللغات الأجنبية . وقد ترجمها على طريقة المقامات من التزام السجع والمحسنات ، ووضعها على سبيل المحاورة بين قوى العقل والملكات والفضائل والشهوات وأودع فيها من الحكم والأمثال العربية ما جعل أثر الاستقلال والتصرف فيها ظاهرا . فهى فى الحق جمع بين الترجمة والوضع .

(١٥) موارد القرآن . وهى رسالة لم تتم فى بعض ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الحكم والأمثال ومواضع الاستشهاد فى حل إشكال أو إجابة سؤال فالبيت الشعرى المشهور :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

له أصل فى القرآن وهو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنو عليكم أنفسكم) ، وأمثال هذا كثير ، وقد نشر منها ثلاث مقالات فى مجلة روضة المدارس تبدأ من العدد الثانى من السنة الثانية سنة ١٢٨٨ هـ .

(١٦) نظم اللآل فى الحكم والأمثال ، وهو رسالة جامعة للحكم والأمثال العربية الشعرية مرتبة على حروف الهجاء ، ففى باب الهمزة ترد أبيات الأمثال المبدوءة بحرف الهمزة ، وفى باب الباء ترد أبيات الأمثال المبدوءة بحرف الباء وهكذا ، وتعد هذه الرسالة ذات قيمة أدبية نافعة ، فهى تعين على الاستشهاد وتسعف على التمثيل ، وقد يؤخذ عليها ترتيب أبياتها على حروف الهجاء بدلا من ترتيبها وفق المعانى المتشابهة . ولعل قصد المترجم له من ذلك كان تسهيل المطارحات الشعرية التى كانت فاشية فى أندية الأدب فى ذلك الحين .

وقد جمعت هذه الرسالة بإشارة من الخديو توفيق حينما كان وليا للعهد . وطبعت فى المطبعة الميمنية سنة ١٣٠٨ هـ فى ٥٦ صفحة من القطع المتوسط .

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY